

كيف نحافظ على الدين ؟ في هذا العصر

الجواب على هذا السؤال يجب أن يشغل المكان الأول من تفكير حماة الإسلام في هذا العهد ، كما شغل حماة الأديان في العالم الغربي طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين شد العلم عليها فأثبت لهم وهن أصولها ، وتداعى أركانها ، لقيامها كما زعموا على الخيالات التصورية الموروثة ، لا على القواعد العلمية اليقينية .

نعم إن السواد الأعظم من الناس هنالك لا يزالون متمسكين بالدين ، ولكن على حساب الإيمان بالتقليد ، لا على حساب الإيمان بالدليل ، وهي حالة يعتبرها خصوم الأديان عرضية لا تلبث حتى تزول يسيراً يسيراً .

ونحن في الشرق قد جاءت نوبتنا ، بعد أن انتشر العلم في ربوعنا ، وتسلمت فلسفته على عقولنا ، فماذا أعدنا لهما لحماية حقائقنا ؟

إن كل ما أعدناه من الأسلحة لمكافحتها ، المنطق ، وقد حطمته الفلسفة الجديدة باعتبار أنه قائم على المسلمات العقلية ، وهذه المسلمات لم تعد لها قيمة إقناعية ، جرياً على الأصل الفلسفي الراهن ، وهو : أن كل معقول لا يقوم عليه شاهد من المحسوسات لا يصح الاعتماد عليه في التدليل ، لأنه هو نفسه بحاجة إلى دليل يشته . فانتقل بذلك ميدان الكفاح من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات .

لا أريد بهذا أن أقول إن المسألة انتهت إلى مأزق لا مخرج منه ، ولكني أريد به أن أنبه القائمين على المحافظة على الدين أننا بسبيل جهاد عنيف يجب أن نستخدم فيه جميع الأسلحة العلمية ، وهي تحتاج إلى خبرة واسعة لاستعمالها ، ولباقة بالغة في توجيهها .

إننا في زمان أصبحت تُوجه فيه الشبه إلى الأديان من المعامل العلمية مباشرة ، ومنها ما كان يظن أنه مقطوع الصلة بها ، كالمعامل البيولوجية والفيزيولوجية

والجولوجية إلخ^(١) ، وقد لقي رجال الدين في العالم الغربي من هذه الشبهات أمرا
إمرا ، وافتتن بشبهاتهم كل من لهم مشاركة في هذه العلوم ، فشالت كفة الدين ،
ورجحت كفة الإلحاد ، وأيقن الناظرون هنالك أن عهد الدين قد انقضى ،
ولا يرجى له من معاد .

إن هذا الدور من الصراع بين الدين والعلم قد وصل إلينا منذ عهد قريب
بما حمله إلينا الغرب من علومه وفلسفته ؛ فأصبحنا ولا محيد لنا عن الدخول فيه .
ومما يعتبر من حسن حفظنا أن يوافق عهد دخولنا في هذا الصراع ، عهد إفاقة للعلماء
الكونيين من غرور علمي طال عليهم الأمد فيه ، إفاقة كشفت لهم أنهم كانوا مخدوعين
بمقررات اعتبروها يقينيات حاصلة على جميع شروط الدليل الطبيعي المحسوس ، على
حين أنها كانت لا تخلو من عنصر الافتراض ، وهو يدع الباب مفتوحا للتعديل
والتحوير ، بل للتخلي عنها إن ظهر أن غيرها أجمع منها لهذه الشروط . وهذه حالة
طأمنت من الخيلاء العلمية إلى مدى بعيد ، وأهابت بأهلها إلى إطالة التفكير . قال
العلامة الكبير هنري بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في كتابه (العلم
والافتراض) . . (La Science et l'hypothèse), par Henri Poincaré :

« الحقيقة العلمية في نظر المتأمل السطحي تعتبر خارجة عن متناول الشكوك .
وعنده أن المنطق العلمي غير قابل للنقض ، وأن العلماء إن أخطأوا أحيانا ، فلا
يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة
بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ . وهي مفروضة ليس علينا فقط ، بل على
الطبيعة أيضا ، مقيدة الخالق نفسه ، ولا تسمح له إلا باختيار حل من بين الحلول
القليلة العدد قلة نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أى شيء قد
اختار الخالق منها . ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية
على هذه الصورة ، نعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

(١) البيولوجيا : علم الحياة ، والفيزيولوجيا : علم وظائف الأعضاء ، والجولوجيا : علم طبقات
الأرض .

« هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادئ علم الطبيعة . وهذا هو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحملون منذ مئة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروى العلماء قليلا ولاحظوا مكان الافتراض من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حيثذاك سأل بعضهم بعضا قائلين : هل هذه المباني العلمية على شىء من المثانة ؟ ثم تحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . فمن ألد على هذا الوجه صار سطحيًا أيضا ، فإن الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلي المؤنة ، فإن كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » انتهى .

نقول : إن هذا القول قد يعده بعضهم جرأة غير محمودة ، وقد يعتبره آخرون شذوذا تدفع إليه حدة عصبية تغلب على مزاج صاحبه ، ولكن مثل هنرى بوانكاريه ، وهو مفخرة الأمة الفرنسية فى العلوم الرياضية ، لا يصح أن يهتم بهذه النقيصة ، لاسيما وليس هو بالمفرد بهذه المزاعم ، فإن أركان النهضة العلمية كافة ، وهم من أجناس مختلفة ، يقولون بهذا رأى نفسه . فإليك مثالا من ذلك : قال الأستاذ الكبير شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا بكلية الطب الباريزية ، والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى مقدمة كتبها فى كتاب (الظواهر النفسية) للدكتور ماكسويل النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية ، قال فى صفحة ٧ .

« يجب على الإنسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى أن يعتقد بقوة أن هذا العلم فى عهدنا الراهن مهما بلغ من الصحة فهو لا يزال ناقصا نقصا هائلا . ثم قال فى صفحة ٩ منه :

« إن حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الإفلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تُعرف إلا عرضا ، وإذا كان لم يوضع الحديد الحلو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا ، كنا جهلنا دائما أن المغناطيس يجذب الحديد ، وما كان أحد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن (كتبت

هذه المقدمة في سنة ١٩١٤) . وقبل أن تُكتشف الفوتوغرافيا كان لا يدرى أحد أن النور يؤثر في أملاح الفضة ، ولم تكتشف الأمواج الهرتزية (نسبة إلى هرتز الطبيعي) إلا منذ ثلاثين سنة . ومنذ مائتي عام كان لا يُعرف عن القوة الكهربائية العظيمة إلا خاصة جذب الكهرمان إذا ذلك بالصوف . ثم قال بعد ضربه الأمثال :

« لماذا لا نصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذى نفخر به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلا إدراكا لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها ففُلت منا ولا تقع تحت مداركنا . والطبيعة الصحيحة للنواميس التى تقود المادة الحية أو الجمادة تتعالى عن أن تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك أننا إذا ألقينا حجرا في الهواء نراه يسقط إلى الأرض . فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله : سقط لجذب الأرض له جذبا مناسبا لمادته ، وللمسافة التى سقط منها . ولكن ما هو هذا الناموس إن لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، وإلا فهل فهم أحد كنه تلك الذبذبة الجاذبة التى جعلت الحجر يسقط على الأرض ؟ إن ظاهرة سقوط حجر على الأرض من الشيوخ بحيث لا تدهشنا . ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عقل إنسانى فهم ذلك . إن هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ، ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) .

« نرى البيضة تُلقح فتصير جنينا ، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ، ونحن بين مخطئين ومصوتين في الواقع ؛ ولكن هل فهمنا ، رغما عن وصفنا الدقيق لها ، سر ذلك التحول الذى يحدث في البروتوبلازما الخلوية فيقلبها إلى كائن حى عظيم ؟ بأى معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تتجمع تلك التحبيبات هنالك ؟ ولما تتهادم هنالك لتعيد تألفها في مكان آخر ؟

« ألا إننا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بقيمتها ، حتى إن أكثرها بساطة لا يزال سرا من الأسرار المحجوبة كل الاحتجاب . فماذا يعنى اتحاد الايدروجين بالأوكسجين ؟ ومن الذى استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد ، وهو يفضى إلى إبطال خواص الجسمين المتحدين ، وإيجاد جسم ثالث مخالف للأولين كل المخالفة ؟ إن العلماء لم يتفقوا لأن حتى على طبيعة الذرة المادية التى توصف بأنها ليس لها ثقل ، وهى مع ذلك تصير ذات ثقل متى اجتمع عدد كبير منها .

« الأولى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعا وجريئا في آن واحد ، فتواضعه يكون بسبب علمه بأن علومنا ضئيلة ، وجريئا (تأمل) لأن مجال العوالم المجهولة مفتوح أمامه » انتهى .

هذا التحول العظيم لمذهب علماء الكون يعتبر فاتحة عهد جديد للعقلية العلمية ، سيكون من أثره حدوث انقلاب جلل في الفلسفة مناسب له كل المناسبة . فبعد أن كان باب التحكم الإنكارى مفتوحا على مصراعيه ، ومدعوا بكل ضروب الإغراء إليه ، أصبح لا يستهوى إلا كل هزيل الروية ، قصير النظر . وهذا لا يعنى أن العقلية العلمية أصبحت سهلة القيادة على الظنون والأوهام ، يمكن تحويلها من الإلحاد المستعصى إلى الإيمان المطلق بغير دليل محسوس ، أو حجة في درجة العيان . لا ! فالأمر على العكس ، فإن ثبوت انخداعها في عالم العلم ، وأدلتها كانت من القوة بحيث تستهوى العقل ، يبعث فيها من خصلة الثبت ما تأمن معه أن تقع ثانية في مثل ما كانت واقعة فيه من الغرور بالظواهر الخداعة ؛ فهي إذا كانت قبل اليوم مستعصية ومنيعه ، فهي اليوم أعصى وأكثر مناعة حيال كل ما ليس له دليل من الحس ، وما لا يمكن تحليله وتركيبه من المعلومات . فالكسب الوحيد الذى حصلت عليه الإنسانية هو أن العقلية العلمية أصبحت أكثر تواضعا أمام الوجود ، وأشد تلهفا على وجدان الحقيقة . فبعد أن كانت تحسب أن ليس وراء ما وقفت عنده من المحسوسات مذهب ، ولا بعد ما انتهت إليه منقلب ، صارت تصرح كما يصرح العلامة الكيميائى الكبير السير وليم كروكس رئيس الجمع العلمى البريطانى كما جاء في مجموع خطبه بصفحة ٨ :

« لست بأسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الإنسانية ، بل إنى أعتبرها مشطا منقذا . إنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سوى أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بوجود فى الكون ، ولا أستطيع أنا ولا أحد غيرى أن نقول بأن شيئا بعينه لا يحصل حولنا فى كل يوم من أيام حياتنا . هذه العقيدة تحدث لى أملا قويا فى أن اكتشافا رئيسيا جديدا يمكن أن يحدث فى مجال من المجالات فى أقل الأوقات تفكرا فيه . »

وكما تصرّح العقلية العلمية الجديدة بلسان فيلسوف أمريكا الأكبر (ولیم جیمس) المدرس بجامعة (هارفارد) كما جاء في كتابه إرادة الاعتقاد

: La volonté de croire

« هل يعقل أن العلم ولم يمض على ميلاده إلا يوم واحد يستطيع أن يمثل لنا شيئا آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه الكون في نظر الذين سيفهمونه على حقيقته في يوم من الأيام ؟ كلا ! إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر ، والأمر الوحيد الذى يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن عالم معارفنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة له إلى اليوم » .

وتصرّح بلسان الأستاذ الجليل أوليفر لودج رئيس جامعة برمنجهام في خطبة له في المجمع العلمى ، وهو رئيس القسم الرياضى والطبيعى فيه :

« إن الذى نعلمه ليس بشيء إلى جانب ما يجب علينا أن نتعلمه ، وقد يقال ذلك أحيانا بلا اعتقاد ، أما بالنسبة لى أنا فهى الحقيقة الحرفية . وإرادة قصر مباحثنا على المجالات التى افتحناها نصف افتتاح ، يعتبر خيانة لعهد الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث ، وتخيبا لأقدس آمال العلم » .

هذه بضعة تصريحات لأقطاب العلم العصرى بعد إفاقتهم من دور الغرور الذى كانوا فيه ، ولو شئنا لأتينا على ملء مجلد ضخّم منها .

نعم ، إن هذا التحول فى العقلية العلمية لا يعنى فى ذاته شيئا غير الترقى من عهد الانخداع بالظواهر ، إلى عهد الاعتراف بالجهل بالحقائق ، والتأهب لبحث كل ما يعرض للبحث ، ولو كان فيه قلب للأصول المقررة ؛ ولكن هذا وحده يعتبر انتقالا يفضى بالعلم إلى مكتشفات قد تُثبت للإنسانية أمورا تحن إلى إثباتها ، وتراها أكبر المعزيات فى تكاليف حياتها ؛ خلافا لما كانت عليه الحال ، من اعتبار كل ما ليس بمادة محسوسة خيالات عقلية لا وجود لها فى الخارج .

وقد اندفع ألوف من العلماء من كل جنس فى التسعين سنة الأخيرة فبحثوا على مقتضى الدستور العلمى فى الروح البشرية ، والعالم الروحانى ، مباحث عملية

تجريبية ، ووقفوا على مشاهدات ذات دلالات بعيدة المدى ، ودونوها في مئات من المؤلفات بكل لغة ، ونشروها في مجلات خاصة وعامة ، بل وفي جرائد يومية كثيرة أيضا ، يمكن أن تكون أدلة حسية على صحة أهم الأمور الاعتقادية في الأديان . ولا يزال البحث مستمرا فيها ، ونتائجه الايجابية تزداد كل يوم كثرة . ولا هم هؤلاء العلماء إلا التحس من المجاهيل الوجودية بعد أن مزقت اليقظة التي حصلوا عليها الحجب التي كانت مسدولة على أعينهم ، فاهتدوا إلى أمور خطيرة للغاية تؤيد المعتقدات الدينية تأييدا لا حد له .

وقد كان من نتائج هذه الحركة أن تألفت جماعات من العلماء تكافح النظريات المادية كفاحا لا هوادة فيه ، وبالأدلة المحسوسة . ونحن نعرض للقراء مدى ما بلغ اعتداد بعض العلماء بهذه النتائج العلمية غير المنتظرة ليتبينوا مبلغ الانتقال الذي حدث في العقلية العلمية منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر . قال العلامة الفلكي الأشهر (كاميل فلامريون) في كتابه (المجهول والمسائل النفسية) ، تهكما بالذين يقفون بالعلم في حدوده المادية القديمة :

« الذين يقولون : معاذ الله أن نصدق هذه المستحيلات ، لا لا ، نحن لا نصدق إلا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ؛ هؤلاء يشبهون قداماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عندما يصلون في رسمهم إلى جبل طارق هذه العبارة : (هنا تنتهي الدنيا) ، ولم يعرفوا أن في تلك الشقة القرية المجهولة يوجد من الأرض ضعف ما كان يعلمه أولئك الجغرافيون الجسورون في ذلك الحين » .

وقال في صفحة (٧٥٠) من كتابه المذكور :

« فالمشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كحقوق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس » .

وقال هذا العلامة نفسه في صفحته ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« أنا لا أخفى عن نفسي بأن كتابي هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات أصولية ، ولا يستطيع أن يقنع غير الباحثين المستقلين ، ولكن ما أقل العقول المستقلة

الحررة على سطح كوكبنا هذا ؛ وما أقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية ! وكأني بجمهور قرأى يقولون : أى شىء فيما ذكرت يوجب الاهتمام : أخونة ترتفع عن الأرض ، ومناضد تتحرك ، وكراسى تنتقل عن مواضعها ، وبيانات تقفز وستائر تضطرب ، وطرقات تحدث ، كل ذلك بلا سبب معروف ، وأجوبة ترد على أسئلة عقلية لم يتلفظ بها إلخ إلخ ، كل هذا من الأمور التافهة أو الهذيان الذى لا يصح أن يلفت نظر عالم من العلماء

« لا جرم أن من الناس من قد تسقط السماء على رؤوسهم فلا يحسون . أما أنا فأجيهم قائلا : ماذا تقولون ؟ ألا يعدّ شيئا لا يؤبه له عندكم أن ندرس طبيعتنا الخاصة ، وخصائصنا الذاتية ؟ » .

وقال العلامة (بييرجانيه) المدرس بجامعة السوربون فى كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة (٣٧٦) وما بعدها :

« المذهب الذى أوجزنا الكلام عنه يستحق درسا مدققا ، ومناقشة أصولية ؛ وإن التشكك والازدراء اللذين يحملان على نكران كل ما لا يفهم ، وعلى تردد كلمتى غش وتدليس دائما وفى كل مكان ، ليس لهما محل هنا ، ولا حيال ظواهر المغناطيس الحيوانى ، فإن الحركة التى دفعت إلى تأسيس خمسين جريدة فى أوربا ، وحملت على اعتقاد صحتها عددا عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة » .

وقال الأستاذ الدكتور شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا فى كلية الطب الباريزية والعضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى المجموعة السنوية للمباحث البيكولوجية لسنة ١٨٩٣ :

« لا يمكن أن يكون مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين فى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا قد وقعوا تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل ؛ والحقيقة أن كل ما وجه إليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه ، وتناقشوا عليه ، ولم يزددهم أحد علما كلما عارضهم بمسألة المصادفات الممكنة والتدليس ، فإنهم فكروا فيها قبل أن يعارضوا بها ، حتى إنى لا أستطيع أن أتوهم أن أعمالهم كانت عقيمة ، أو أنهم قد تأملوا وجربوا فى أوهام خداعة » انتهى .

إني لم أرد من إيراد كل ما أورده إلا أن أثبت أن العقلية العلمية قد افتكت من الربط الفولاذية التي كان قد أوثقها بها المذهب المادى ، وأنها قد أصبحت حرة تتناول كل بحث غير حاكمة عليه قبل النظر فيه بالاستحالة ، متابعة لأصول مقررمة رسمت للبحوث العلمية حدودا لا تتعداها ، وقررت عدم وجود شىء وراء العالم المحسوس ، فهذا التحرر خطوة واسعة ستؤدى حتما إلى وجدان اكتشافات جديدة فى حقيقة القوى العاملة فى الوجود ، يستفيد منها الدين أدلة محسوسة على صحة العقائد التى يدعو إليها .

وإني لم أعتدّ بالعلم الكونى هذا الاعتداد كله ، إلا لأنه هو المتصرف الوحيد فى عقلية الناس ونفسياتهم ، فما قاله فى شىء أنه محال أو وهم باطل ، فلا يوجد دليل فى الأرض يمكن أن يرفع عنه هذا الوصف ، وإن تظاهر حماة الأديان بخلاف ذلك .

وقد أردفت التبشير بهذا التطور الجلل الذى دخل فيه العلم ، بتأكيد رجال من عليتهم بوجود عالم روحانى ، وبعثورهم على أمور محسوسة تدل عليه دلالة قاطعة ، لأثبت صدق ما ذهبت إليه من أن هذا التطور سيكون فاتحة عهد انتقال بعيد المدى ، سيستعيد الدين من ورائه سلطانه على العقول .

وإذا كان هذا كله مسلما به فإن من المحافظة على الدين أن يدرس علم الطبيعة فى معاهده مراعى معه ذكر التطور الذى حدث فيه ، فلا تلقى أصوله باعتبار أنها حقائق مقررمة لا تقبل التحوير ، ولكن باعتبار أنها تقارير ظنية يؤخذ بها مع توقع تهذيبها أو استبدال غيرها بها متى كشف فى موضوعها أمر جديد . ويجب مع هذا أن تجعل لهذا العلم مقدمة تبين بها حقيقته والتطورات المتتالية التى دخل فيها ، ليرى المتعلم أنه أمام علم لم يبلغ بعد طوره الأخير .

ولا أرى بأسا من أن يتخير لطلبة الدين بعض ما أثبتته علماء أوروبا بالتجارب العملية من وجود قوى فوق قوى الطبيعة تؤثر فيها فتبطل عملها ، أو تصرفها عن وجهها ، مما يعطيهم فكرة عامة على ما الإنسانية بمسيله من مكتشفات جديدة توسع من دائرة معرفتنا بحقائق الوجود .

أليس مما يؤسف له أن تبقى هذه المكتشفات وقفا على رجال العلم الكوفى ،
ويحرم منه الذين تحتم عليهم طبيعة ما يدرسونه أن يكون لديهم ذخيرة منه ليدحضوا
به شبهات الملحدّين ، وشكوك الشاكّين فى صحّة ما يقررون ؟

أو ليس مما لا يلىق أن تبقى كتب العلم الطبعى بين أيديهم فى ضلالها القديم ،
مقررة أن المادة لا تنعدم ولا تتجدد ، على حين أن العلم الطبعى نفسه قد توصل
منذ أكثر من ثلاثين سنة إلى إفناء المادة بتحويلها إلى قوة ، وهو اكتشاف أصاب
المذهب المادى فى الصميم ؟

فإذا أردنا أن نحافظ على الدين فى وسط عدد لا يحصى من الشبهات الإلحادية
التي توجه إليه ، وجب علينا أن نمكن أهله من الأسلحة الماضية التي تحلل هذه
الشبهات وترمي بها بواسطة المكتشفات الجديدة إلى مكان صحيح ^(٥) .

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الأول ، (صفحة ١٢) ، سنة ١٣٦١ هـ .

الدفاع عن الدين في هذا العصر

اضطر الإنسان في كل عهد من عهوده إلى الدفاع عن دينه من الناحية الأدبية والعلمية ، حيال أدوار الانتقالات العقلية التي ما تفتأ تتجدد تحت تأثير الاكتشافات العلمية الجديدة ، والتجارب الحيوية المتعاقبة .

ولما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير ، فإن الضرورات تدفع العقل البشري لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التي تطرأ وتوسع من مجال النظر ، وبين الأصول الثابتة التي يدين لها باعتبار أنها متنزلة من الأفق الأعلى .

من هنا نشأ إلى جانب الدين فرع علمي خاص بالدفاع عنه ، سماه المسلمون علم الكلام ، وسماه الأوروبيون ابولوجيتيك Apologetique ، وكان هذا العلم في القرون الماضية قليل الكلفة على القائمين به ، إذ كان لا يستدعى منهم أكثر من التمهير في صوغ الحجج العقلية ، والتمرس بالخصومات المنطقية ؛ ولكن لما جاء عهد العلم ، وأصبحت المسائل الكبرى يفصل فيها في المجامع العلمية ، وجب أن يُدخَلَ علم الكلام في طور جديد قل أن يستطيع القيام به فرد واحد ، لأن المسائل الكبرى التي يهم الإنسان معرفتها ، وهي أصل الوجود ، وحدث الكائنات وتنوعها في الصور ، وتولد الحياة وسوقها للنباتات والحيوانات إلى كالمها ، ونشوء الروح الإنسانية ومظاهرها المختلفة من التعقل والتفكير والابتكار ، وظهور الأنواع ، وما ألهمته من مقومات حياتها ، وما سيقَت إليه من محاولاتها ، كل هذه المسائل قد شغلت الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً ، وتكلم فيها رجال العلم على حسب ما وصلوا إليه من المكتشفات ، وغيروا وبدلوا فيما قالوه فيها في مدى العصور ، حتى وصلوا إلى عهدنا الراهن وهي مسائل للدين فيها أقوال لا تنفق في ظاهرها وأقوال هؤلاء الباحثين ، مما اضطر رجال الدين طوال عهد القرون الوسطى إلى فرض رقابة قاسية على رجال العلم ، ومعاقتهم على مخالفتهم للكتب المقدسة عندهم ، وقد شددوا عليهم في ذلك ليردعوهم حتى كانوا يحرقونهم بالنار .

فلما ظهر المذهب البروتستانتي في نحو منتصف القرن السادس عشر ، وأخذت به أمم في أوروبا الوسطى وغيرها ، رفع الخناق عن أعناق رجال العلم ، لأنه كان من أصول هذا المذهب في أول نشوئه إطلاق الحرية للباحثين ، وعدم العدوان على أحد بسبب مذهبه العلمي ، فقويت عزيمة رجال العلم على متابعة بحوثهم وعلى إعلانها غير حاسبين لرجال الدين حسابا ، حتى كادت هذه الحرية تصبح خطرا على الكنية ، فاضطرت للتضييق على العلماء ، ولكنها لم تصل بذلك التضييق إلى درجة القمع بالقوة ، فكان هذا مبدأ تاريخ حصول العلم على استقلاله .

تتابعت البحوث العلمية ، في هذا الجو من الحرية ، وكان لها من النتائج في تيسير وسائل العيش ، وتخفيف ويلات الحياة ، وزيادة الثروة العامة ، ما أقنع الناس طراً أن العلم ركن لا بد منه في بناء كل مجتمع متمدن ، وأن الوجود الدنيوى بدونه يصبح عبأً ثقيلاً على أهله . هذه المكانة السامية التي نالها العلم بحق ، مكنته من التصريح بآرائه في الدين وعقائده ، غير مقيم لآثاره في عقول الآخذين به وزنا ، وتمادى حتى أعلن على رعوس الأشهاد بأن الدين عقبة في سبيل انتشار الفلسفة العالية الجديدة بكرامة العقلية الإنسانية ؛ ورجال العلم لأجل أن يقنعوا الناس بصحة هذا الحكم ، أخذوا ينقدون كل ما جاء في الدين خاصا بالوجود والموجودات ، وتاريخ الأمم والجماعات ، نقدا لم يراعوا معه الاعتبارات الواجب الاعتداد بها في محاولة الفصل في هذه الشئون ، وهم بسبب افتتانهم بالمذهب المادى ، وإنكارهم لكل ما هو فوق العالم الطبيعي ، قذفوا بكل ما هو متعلق بالعالم العلوى إلى عالم الأضاليل .

بماذا قابل رجال الدين هذه الحملات الشعواء ؟ قابلوها بقذف الاناتيمات (أى اللعنات) تلو الاناتيمات ، معتمدين على كثرة سواد العامة ؛ ولكن العامة يُنتقص من أطرافها كل يوم بانتشار التعليم ، وتسهيل طلب المعرفة للراغبين ، وكلما ازداد رجال الدين انكماشاً ، آنس الناس فيهم عجزاً عن الدفاع عن حوزتهم ، وأثر ذلك في العامة أبلغ تأثير .

الخطب جد خطير ، وعلاجه ليس بالأمر العسير ، إذا لم يمين بالتقصير والتأخير . وأول ما يجب أن يفكر فيه اختيار الأسلوب الذى يجب أن يُتوخى في مكافحة الشبهات

الموجهة إلى الدين ، وإعداد الأسلحة من الصنف الذى يعتمد عليه الخصوم ، فإذا لم يكن لدينا ما ينقض شبهتهم من العلم نفسه سقطت حجتنا ، واستُخِفَ بالحقيقة التى ندافع عنها .

نعم إن العلماء الكونيين بما يقومون عليه من النظر فى الكون ، وبناء أحكامهم على حوادثه ، يقفون موقفا يصعب على من ينازعهم فى حكم أن يساويهم فيه ، ولكنه لو كان يشاركهم فى معارفهم لأدرك نواحي القوة ، ونواحي الضعف من استنتاجاتهم ، فإن عن له أن ينازعهم فى شيء فإنما يحتاج فى تلك الحالة بأقوالهم ؛ وإنى ضارب لك مثلا بمسألة النواميس .

أصبح من المقررات العلمية أن الكون محكوم بنواميس ثابتة لا تتغير ، وأن كل الكائنات مدبنة لها بوجودها ، وبما فيها من قوى ووسائل تمكنها من البقاء عمرها المحدود .

هذه قضية يخيل للذين لم يرودوا جميع مجالات العلم ، ولم يتوسعوا فى الإلمام بمنازعات أهله ، أنها من البدهيات التى لا يصح لعاقل أن ينازع فيها ، تفاديا من أن يتهم بالجهل وقصر النظر ، وقصارى ما كان يلجأ إليه المدافع عن العقيدة أن يدل على أن وجود هذه النواميس لا يناقض وجود الإرادة الآلهية ، بل هى مظهرها فى العالم المادى ؛ وعدم تخلفها لا يدل على أنها واجبة الوجود ، لأن الخالق حكيم ولا ينقض دستوراً وضعه للكون ، لتأدى الكائنات بالجرى عليه إلى كمالها ، على نظام لا تفضل فيه العقول .

هذا كلام تثلج عليه بعض الصدور ، ولا يقيم له بعضها الآخر وزناً . ولكن الذين يكونون قد جاسوا خلال المسائل العلمية الكبرى ، يعلمون أنه ما من مُسلم من المسلمات العلمية إلا وقع بين العلماء فيه نزاع يحدد من سلطانه على العقول ، ويسلب عنه حق الحلول محل غيره من الفروض .

قال العلامة الكبير أميل بوترو Emile Boutroux العضو بالمجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (قلب النواميس الطبيعية) :

« من الخطأ أن يقال إن النواميس هي التي تدبر الظواهر الطبيعية ، لأنها لم تكن موجودة قبل الكائنات ، ولكن الكائنات هي التي اقتضتها ، وهي لا تبين إلا العلاقات التي تحدث من تأثير طبائع تلك الأشياء بعضها في بعض ، هي سابقة في الوجود على النواميس ...

« العالم يرينا في كل مكان بجانب الدوام والاستقرار ، وهو مما يوجب القول باستقرار النواميس ، حالات أخرى من التغير والارتقاء والانحطاط ، وهي تقتضى القول بتقلبها ، وليس هذا في النواميس الجزئية فحسب ، ولكن في النواميس الكلية أيضا ...

« أكان هذا النظام العالى (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجد ، إذا كان الثبات المطلق هو الناموس السائد في الكون ، وكان الأصل الذى مؤداه أنه لا يتلاشى شيء ولا يتجدد شيء ، ساريا بدقة على الكائنات ؟ أكانت توجد في العالم قيم متفاوتة ، أى صفات ومزايا بعضها أسمى من بعض ؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين ثمرات قوة واحدة ثابتة لا تتغير ؟

« إن وجود الإنسان ، وهو كائن شاعر بذاته ، لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفيزيولوجية ، فإن وجوده وأعماله تقتضى من الطبيعة إحداث ترقيات لا تستطيع إحداثها .

وقال العلامة الكبير الأستاذ السير وليم كروكس الانجليزى في خطبة له بالجمع العلمى الانجليزى ، وما نقله عنه هنا مقتبس من مجموعة خطبه صفحة (٣٦) :

« إن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو في حقيقته وجه من وجوه الاتجاه الذى يعمل على موجه شكل من أشكال القوة ...

« فأى ضرب من ضروب الإرادة والفكر موجود خلف الحركات الذرية للمادة ليجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ ...

« وأى ازدواج من الإرادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات المادية ، خارجا عن النواميس الطبيعية ، بحيث يحملها على تكوين هذا العالم الذى نعيش فيه ؟

وقال العلامة المذكور في خطبة أخرى (صفحة ٨ من مجموعة خطبه) :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بإدراك إلى أى حد تنحصر هذه النتائج ، أو كما نسميها النواميس ، في دائرة نواميس أخرى ليس لنا عليها أقل علم » .

هذا كلام صريح من رجل يعتبر من أعلم الناس بالنواميس ، لأنه كيميائي ورياضي معا ، بأن الناموس في حقيقته لا يعدو كونه وجها من اتجاه قوة تعمل في التكوين ، لا أنه عامل مستقل ، وأن خلفه إرادة وفكراً هما العاملان الحقيقيان في الواقع .

وقال الفيلسوف الكبير (ادوار لوروا) E. Le Roy ونقله عن العلامة الرياضي هنري بوانكاريه H. Poincaré عضو المجمع العلمي الفرنسي ، مؤيدا له ، في كتابه قيمة العلم La valeur de la science . .

« العلم لم يتألف إلا من تواضع العلماء على أصوله ، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا على ما هو عليه من الاستقرار . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست إلا من مخترعات العلماء أنفسهم (تأمل) . فالعلم لا يستطيع ، وهذه حالته ، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما يرجي منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل » .

هذا نموذج من آراء أقطاب العلم في أصوله العامة ، وقد اخترت أصلا من أوليات أصوله مما يعتبر المتحذلقون التشكك فيه جهلا يوجب المسخرية ، فما ظنك بغيره من الأصول ؟

ولكن لا يجوز أن يحملنا هذا على الاستخفاف بالعلم لنقيم على أنقاضه دولة الأوهام والظنون ؛ فإن العلم كما هو قاس على أصوله باعتبار أنها في حاجة إلى التكيل ، قاس كذلك على مقررات لا مستند عليها إلا أنها من مرويَات الأقدمين ؛ وهو إن كان ينقد بعض أصوله نقدا لا هوادة فيه ، فذلك لأنها لم توف بشرطه من ضرورة قيامها على التجربة ، وهو مرمى بعيد يجب أن يحسب حسابه المستخفون بالعلم من المتكلمين .

ونحن إن كنا نبغى من وراء أمثال هذه التحليلات العلمية نصرة الدين ، وجب علينا أن نسلك إلى مرادنا على أسلوب العلم نفسه ، وبالاستناد إلى يقينياته المقررة ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بعد أن نجرد الدين من كل ما ليس منه من الآراء البشرية ، وهذا ما سنتوخاه في مقالاتنا المقبلة إن شاء الله ^(٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء السادس ، (صفحة ٢٤٦) ، سنة ١٣٦١ هـ .

أكبر أسباب الخلاف

بين أصحاب الأديان

بماذا تذرع الإسلام لحسم مادة هذا الخلاف ؟

أكبر أسباب الخلاف بين الأمم تعصبها لأنبيائها ، وذهابها في تقديسهم وتنزيههم مذهبا لا يتفق مع العقل ، ولا يستقيم على دليل .

كانت الأمم في العهود السابقة لا تدين للمقررات العلمية ، ولا تخضع للأحكام العقلية ، هائمة بين الحس والخيال ، في واد لا يحده حد طبيعي ، ولا يسوده نظام من أى نوع كان .

كان الحس يزعج الأمم بأنواع من الفواعل الوجودية : من حر وبرد ، وجوع وظمأ ، ومرض وموت . فكانت تنفعل طبيعتها لهذه الفواعل أيما انفعال ، فتطلب المخلص بالجد والكدح ، فإن أخفقت في ارتياد المخلص من عالم يعلو متناول حسها ، نظرت إلى السماء مناجية الروح الأعلى قيوم السموات والأرض ، وهى نزعة ليس أكمل ولا أحق منها لو وقفت عند هذا الحد . ولكن الخيال يطمس جلالها وجمالها بما يحمل إليها من صنوف الأوهام والتصويرات الباطلة ، ويحمل الأمم على تجسيد هذا الشعور العالى ، فتدين الأمم لأنصاب وأصنام تتخيل فيها الوساطة أو الحلول ، أو غير ذلك من الأحلام . فإن رق شعورها وترفعت عن التجسيد الصورى ، جسدت الخالق ذهنيا ففرضته ملكا سماويا جالسا على كرسى الجلال وبين يديه الملائكة يأمرون بأمره على طراز الملوك الأرضيين .

فكل رسول أرسل إلى تلك الأمم ، وسلم من بطشها ، رفعته إلى أرفع من مستوى البشرية ، وأكثرها دعاه ابنا لله ، وكان أكبر أسباب هذا الغلو ، اعتماد أولئك الرسل في تأييد دعواهم على المعجزات . فكان عيسى عليه السلام يحى الموتى وما دون ذلك من شفاء الأكمه والأبرص والأعمى ، وموسى أوتى العصا وغيرها ، وأوتى

من قبلها أنواعا أخرى من المعجزات . وكان لا سبيل إلى إخضاع الأمم للقانون والشرعية إلا بهذه الوسيلة ، فإن سلطان العقل لم يكن له عليهم من سبيل .

فكانت هذه الخوارق من أكبر أسباب رفع الأنبياء إلى درجة النبوة لله تعالى ، والغلو في تعظيمهم ولا سيما بعد موتهم إلى حد نسوا معه الخالق ذاته ، فجعلت العبادة لهم دون سواهم .

فلما جاء دور الإسلام كانت الأمم قد دخلت من حياتها الأدبية في دور التعقل والتفهم ، وعرفت لأحكام العقل ونواميس الكون قيمتها ، فلم تعد للمعجزات من أثر على خيالها ، حتى أن العرب لما أرادوا أن يطلوا دعوة النبي ﷺ ، اقترحوا عليه أن يأتيهم بالمعجزات ، ويؤخذ من سياق طلباتهم ، أنهم كانوا لا يأبهون بها ، بل يشكون فيها وينسبون حدوثها للشعوذة . فقالوا كما حكى الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةَ قِبْلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ نِيتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ (أى من ذهب) أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفْرُوهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (١) .

يرى القارئ من سياق هذه التحديات مبلغ استخفافهم بالآيات . وقد نص الله تعالى على أنهم كانوا من الشك بحيث إنهم لو كانوا رفعوا إلى السماء لقالوا إن ذلك من تخييلات السحر لا من الله عز وجل ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٢) سكرت أبصارنا : أى سدت عن الإبصار بالسحر .

إلى هذا الحد كان قد وصل الشك على عهد النبي ﷺ في صحة المعجزات ، وهو كما يدل على التغلغل في الإنكار والجحود ، يدل على مبلغ خلاص العقل من الأوهام والخزعبلات . فإن الجاهلي الذي يتشدد في تصديق المحسوسات الخارقة للعادة ،

(١) سورة الاسراء : ٩٠-٩٣ .

(٢) سورة الحجر : ١٤-١٥ .

ويتحل لها أسبابا خفية ، أحر به أن لا يقبل ما دونها من التخيلات السحرية ، والزخارف الشعوذية .

فاقتضت حكمة الخالق الحكيم أن يرسل إلى الناس في هذا الدور الأخير رسولا يأخذ الناس بأحكام العقل ، ويردهم إلى مقررات العلم والحس ، فكان نجاح النبي ﷺ في مهمته ذلك النجاح الذى لم يصادفه رسول قبله أدل دليل على مبلغ ما يفعله البرهان الصحيح والعلم المؤسس على الحق الصريح في نفوس الأمم .

من هنا انتقل الناس من دور التسليم بمجرد رؤية الخوارق ، إلى مستوى النظر في الحوادث ، والاستدلال بالأعلام الوجودية ، وهى خطوة واسعة في سبيل رقى البشرية ، تعتبر الغاية القصوى في حياتها الدينية .

فكان سلاح نبي الإسلام في بث دعوته العقل ووسيلته النظر في الكون ، والاستدلال بأعلامه وبياناته ، وهذا مظهر لم يكن عهده الناس من مظاهر النبوة . فبعد أن كان الإنسان يقول للقائم بدعوة : ما هى معجزتك ؟ صار يقول له : ما دليلك العقلى ؟ فإن أدلى بالدليل كفاه ذلك عن كل خارق للعادة ^(١) .

سقطت في هذا الدور دولة الخوارق ، وقامت دولة الأحكام العقلية والقياسات النظرية ، فقام المتدينون بالإسلام على غير السمت الذى كان يقوم عليه من قبلهم من الأمم المتدينة . قاموا على سمت العلم والنظر في الكون والاستدلال بالحوادث ، فلا غرو أن أصبح المسلمون بعد عدد محصور من السنين أرقى الأمم علما وعملا ، وأبعدهم بالوجود وحوادثه خبرا .

فكانوا يدرسون الطبيعيات والرياضيات ، وينقبون في الأرض عن خفايا المعادن ذات القيمة العظيمة في الصنائع والفنون باسم الدين والقرآن وخلافة الله في أرضه ، بينما كان من تقدمهم يقتل بعضهم بعضا تأليها للرجال ، واختلافا في الأباطيل التى أحاطوا بها عقائدهم ، فلا عجب إن دوخ المسلمون من تلك الأمم في أقل من قرن

(١) ليس مؤدى هذا الكلام أن النبي ﷺ لم تصدر منه معجزات كسائر إخوانه الأنبياء ، ولكن مؤداه أنه لم يجعل المعجزات أساسا للدعوة . أما معجزاته ﷺ فكثيرة شهد بها عدد من الناس لا يدع للشك فيها مجالا .

ما لم تستطع أكبر الأمم شأنًا أن تدوخه في قرون عديدة . ولا غرابة إن بلغ المسلمون من المدنية الفاضلة ما لم تبلغه سواهم من الأمم البائدة .

إن من المدهشات بل من المعجزات التي تشهد لهذا الدين بأنه وحى إلهى صادق ، أنه حشر إلى حظيرته في قرن من الزمان نحو مائة مليون من الأتباع بمحض وجوده لا بسيف ولا إغراء .

لأن المسلمين كانوا إذا أرادوا إخضاع أمة جريا على ناموس التغالب ، خيروها بين ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وكانت الجزية التي يضربونها على الأمم لا تبلغ بعض ما كان يجبيه ولا تهم منهم بضرب وجوههم ، فكان يسهل على كل أمة تغلب لهم أن تدفع الجزية ، فما الذى اضطر هذه الملايين إلى الدخول في الإسلام غير سماحة هذا الدين وانطباقه على أحكام العقل ، وظهور أهله بمظهر الكمال والفضل ؟ أما الدعوة فقد كان المسلمون أهملوها طمعا من أكثر الولاة في زيادة أموال الدولة بما يجيء من الجزية ، فإن الرجل كان بمجرد دخوله في الإسلام يعفى من الجزية ، فيكون في ذلك عجز لإيراد الحكومة .

لهذا السبب كان بعض الولاة يكرهون أن تدخل الأمم المفتوحة في الإسلام تفاديا من نقص الإيرادات .

ولكن الشعوب كانت ترى الفرق واضحا بين تعاليم دينها وتعاليم الإسلام ، فكانت تتراعى إلى أحضانه طائعة مختارة ، حتى بلغ عدد من دخل منهم في أقل من قرن في الإسلام نحو مائة مليون كما قلنا ، وهذا عدد لم يسمع بمثله في تاريخ دين من الأديان .

ولا يزال الإسلام سائرا في طريقه من الانتشار العظيم ، ولو كان المسلمون اليوم على ما كان عليه آباؤهم من الفضائل التي يندبهم إليها دينهم لانتشر دينهم بلا دعوة انتشارا لا يدع لغير الإسلام من الأديان مجالا لمنازحته .

وقد بذل الإسلام مجهودا عظيما ليزعزع في الأمم عقيدة تأليه النبيين حتى لا تقف هذه العقيدة حجر عثرة أمام ترقبهم ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وزاد على هذا بيانا فذكر شيئا من تفصيل حالات أولئك المرسلين حتى يزيل كل احتمال لارتفاعهم عن مستوى الإنسانية ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (٢) .

كأنه قال إن من يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق لا يصح أن يكونوا آلهة أو أجزاء من آلهة ، فهم أفراد من خيار هذا النوع لا فرق بينهم وبين سائر أفرادها إلا أنهم اختيروا لأن يكونوا رسلا لله إلى عباده .

كان لهذه الآيات تأثير كبير في كسر غلواء المتدينين ، وصد تيار التأليه عن النبيين ، ولم يزل هذا التأثير يرقى وينتشر حتى صرنا في قرن لا يجسر واحد فيه أن يعلن هذه العقيدة إلا في بلاد لم تأخذ حظها من العلم والنظر .

وأخذ نوابغ القرون الأخيرة يثون في الناس مبدأ تنزه الخالق عن الولد والشريك ، وأن المرسلين ليسوا إلا رجالا اقتبسوا النور عن الخالق وعكسوه على الناس ، فقال حكيم الشعراء (فيكتور هوجو) كما نقلته المجلة الروحية عنه :

« إن الشعور الفطري المودع في صميم الإنسان بوجود الله تعالى ألقى إليه من تلك الشمس مباشرة (يعنى بالشمس الله عز وجل) ، أما الديانة اليهودية والصابئية والبوذية والمعددة والمناوية والمحمدية والمسيحية فهى من نور القمر ، لأن موسى وبوذا وزرادشت وأورفيه وكونفشيوس وماني ومحمد وعيسى هم أنواع من الكواكب دائرة حول تلك الشمس يستشرفون نورها ويعكسونها على من دونهم من العالمين ، فالديانات التى هى أقمار الشمس الإلهية مهمتها إفاضة النور على الإنسان فى غياهب حياته وظلمات بقائه » انتهى كلامه .

(١) سورة النحل : ٤٣ .

(٢) سورة الفرقان : ٢٠ .

عذا كلام فيه جهات من الضعف إلى جانب جهات من القوة بارزة فيه ،
والكنه مما يستشهد به على أية حال للدلالة على تحول العقلية البشرية عن تأليه
الأنبياء ، وعلى اتجاه نظرها إلى الديانة الإسلامية بعد أن كان التعصب يحول بينها
وبينه .

فالحوائل التي كانت تفرق بين الأمم ، وأشدّها الغلو في تقديس أنبيائهم ورفعهم
إلى درجات الألوهية ، كادت تكون في عداد الآثار التاريخية . فإذا وصل الإنسان
إلى الخلاص منها توحدت الأديان على أسلوب القرآن ، وكان الفوز لأصوله على
مر الأزمان (٥) .

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء السابع ، (صفحة ٤٧٠) ، سنة ١٣٥٧ هـ .

الشبهات العلمية على الأديان

تحليلها ودحضها على أسلوب العلم نفسه

يهم المدافعين عن الإسلام في هذا العصر أن يعرفوا جميع الشبهات العلمية التي يدلى بها فلاسفة العهد الحاضر على الأديان ، للتدليل على أنها لا تتجه إلى الإسلام . لذلك أرجو أن يعذرنا القراء إن بسطنا لهم هذه الشبهات بسطا بكل ما تحمله من نتائج قريية وبعيدة ، مع التعقيب عليها بما يثبت أن الإسلام بمنجاة منها .

للفيلسوف الكبير (جيو) Guyo الفرنسي كتاب أسماه (اللادينية المستقبلية) أودعها أمهات الشبهات على الأديان ، وقد طبع مرات كثيرة فنقتطف منه تلك الشبهات فهو أوسع مصدر لها ، قال :

« مما قرره النقد العصري للأديان أمر جدير بالنظر ، وهو أنه قد دلت مباحث المسيو روسكوف والمسيو ريفيل والمسيو جيرادوريل بأنه يستحيل القول بوجود أم في عصرنا هذا على سطح الأرض مجردة عن ديانة أو عقائد خرافية حتى في الأمم المتوحشة ، وقد صار الإنسان كائنا متدينا بسبب أنه أعقل من غيره من الحيوانات .

« وغير هذا فإن الآثار الباقية من عهد الإنسان قبل التاريخ ، تدل بواسطة ما وجد من الطلاسم والمقابر وقطع من الجماجم مثقوبة بقصد التعليق ، على وجود الدين إذ ذاك .

« وإذا فتدین الإنسان يمكن اعتباره وجوده بطريقة لا تقبل الجدل من عصر الحجر المصقول .

« وإذا انتقلنا من الأمور المحسوسة إلى الظنون ، فيمكننا أن نقول بأن الإنسان قبل مائتين وخمسين ألف سنة كانت له عقائد مبهمة سطحية ، ولو لم يكن إلى ذلك العهد قد شعر بوجوب احترام للموتى يحمله لأن يحفر لهم قبورا ، ولا اتخذ لنفسه صنما يتقرب إليه بالعبادة .

« هنا نقطة ثابتة يمكن قبولها ، ولها نتائج هامة فيما نحن بصددده : ذلك أن الديانة لما لم يكن أصلها من عالم علوى (هذا رأيه) فقد ترفت تدريجيا على مقتضى نواميس منتظمة عامة ، وتولدت من أفكار ساذجة مبهمة تناسب تلك العقول الساذجة الأولية ، ثم تدرجت مترقية حتى وصلت إلى مستوى المدركات الكثيرة التركيب ، العظيمة القيمة التاريخية ، كما هي عليه الآن . من هنا ليس للأديان أن تتوهم أنها لم تترق من أصل بسيط ساذج ، بل هي ترفت على غير علم منها مقودة بحركة الترقى العام إلى الحالة التى هي عليها الآن .

« بقى علينا أن نحدد تلك الأفكار الأولية التى كانت أساسا للأديان . هنا يتبدى الخلاف بين رؤساء العلم الدينى (يريد بهم العلماء الباحثين فى الأديان لا العلماء الدينين) ، فبعضهم يعللون الأديان بواسطة وجدان عال نبع من صميم القلب ممثلا الحقيقة العلوية بإجاء إلهى ، وبعضهم يعللها بقوله إنه خطأ من الإنسان فى التجربة ، وخطأ من عقله فى الاستدلال . فالأولون يرون أن الدين اندفاع من العقل الإنسانى ليصمو عن حضيض الطبيعة التى نحن متورطون فيها إلى مكانات الرفعة الملوكوتية . والآخرون يرون أنه نشأ من تعليقات الإنسان للحوادث الطبيعية العادية تعليلا باطلا ، سواء فى ذلك الحوادث التى تقع تحت حسنا أو تجيش فى ضمائرنا . فهو فى نظر أحد الحزبين أرقى من العلم ؛ وفى نظر الحزب الآخر هو العلم فى طفولته .

« جميع الفلاسفة العقلين مثل أتباع ستروس ورينان وماتيو أرنولد يجدون فى الأديان جرثومة مذهبهم الراقى ، ويحنون رعوسهم لإجلالها على حال توهم أنها استهزائية لولا أن لسان حالهم يشعر بأنهم مخلصون فيما يفعلون . فهم يرون فى الأديان أشرف وأبقى ما أنتجته العقول البشرية . أما الفلسفات الحسية فلا ترى فى أصول الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة .

« من هنا يرى القارئ أن مسألة البحث عن أصل الأديان على مقتضى الأسلوب الجديد الذى تتطلبه روح العصر الراهن هى من المسائل العويصة الحل . وقد كان الناس يتساعلون من زمان بعيد : هل الدين وحى إلهى أم وضع طبيعى ؟

فانتهت بالناس الحال اليوم لأن يتساءلوا : هل الدين مطابق للطبيعة الحقة ، أم هو نتيجة ضلال من العقل أو ضلال من النظر ، كان حدوثه أمرا مقضيا ثم هذبه العلم وأوضحه على تهادى الأزمان ؟ ويتساءلون أيضا : هل الإله المذكور في كتب الأديان هو نفسه ذلك المعبود الوهمي الذي كان يعبد الوثنيون فكبره المتدينون ونزهوه على نسبة ارتقاء عقولهم ؟ ، انتهى كلام الفيلسوف جيو .

ونحن نتصدى لتحليل هذا الكلام والرد عليه ، لأنه في نظرنا يشتمل على قضايا تحكيمية لا تدعو الضرورة إليها ، بل يوجد في العلم نفسه ما يناقضها .

فقول الفيلسوف جيو : الأديان ليست من أصل علوى بدليل أنها نشأت ساذجة مبهمة ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نوااميس منتظمة عامة ، فلا يصح أن يكون دليلا على أن الدين أصله أرضى . فإن العقل الإنساني نفسه نشأ ساذجا مبهما ، ثم ترقى وتركب على مقتضى نوااميس منتظمة عامة ، والعقل ليس بأرضى الأصل لأنها مجردة منه ، والمجرد من الشيء لا يعطيه ، فأصل العقل علوى كما هو بدهى ، وكونه نشأ ساذجا مبهما لا يقدح في ذلك . فالحكم على الدين بأنه أرضى لا علوى لأنه نشأ ساذجا مبهما ثم ترقى - تحكم لا يسوغه عقل ، ولا تقبله فلسفة إلا الفلسفة المادية ، وقد تحطمت أصولها أمام الفتوحات الرومانية التى توالى التسعين السنة الأخيرة .

وكيف لا يعتبر الدين علويا وهو ينزع إلى التقرب من موجد الخليفة بالإخبارات إليه ، والتقرب منه بحرمان النفس من مشتبهاتها ، وبتقييد رغباتها ونزعاتها ؟

أليس للأصل حق في توجيه النزعة التى يولدها في النفس ، فلو كان ذلك الأصل أرضيا فهل يدفع بالنفس إلى ما فوق الأرض ؟ ولماذا ؟ فإذا لم يوجد سبب وجيه لإحداث هذا التوجيه المعاكس فلا يمكن أن يعقل ، فلنتظر ماذا يقوله الفلاسفة الماديون بعد ذلك لعلنا نصادف ذلك السبب في أقوالهم فنحاكمه إلى العلم .

يقول جيو : إن بعض الباحثين في أصل الدين يرون أنه نشأ من تعليقات الإنسان للحوادث الطبيعية تعليلا باطلا ، وعلى ذلك فيكون الدين هو العلم في طفولته .

ومعنى هذا أن الإنسان رأى أن الأنهار قد تطفئ فتفرق أهله وحرثه ، أو تصيب ماشيته وأمتعته ، ورأى الصواعق تنقض فتحرق كوخه وتحتاج بعض ذويه ، ورأى الرياح تركب رأسها فتهدم بيته ، وتقتلع أشجاره ، أو تسقط ثمراتها ، ورأى السيول تصيبه فلا تبقى في طريقها من أشياءه ولا تذر إلخ ، فنظر في علل هذه الحوادث كلها فلم يجد لها تعليلاً غير هذا : وهى أنها من عمل روح أو أرواح شريرة تغضب عليه لإهماله شأنها ، فتنقم منه بإثارة هذه الجوائح عليه ، فحمله ذلك على وجوب الاعتراف بسلطانها وعبادتها ، وتقريب القرابين لها ، وإهداء أئمن ثمراته إليها ، وتمادى في ذلك وهذبه ونقحه على نسبة ترقى عقله حتى وصل إلى توحيدها ، وإلى تنظيم العبادات لها وتجريدها ، واعتبر ذلك وحياً إلهياً ، ناسياً أصلها الساذج ، والأطوار التى دخلت فيها تدريجياً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه .

نقول : وهذا أيضاً لا يسمح به العلم ، ولا يسمح به النظر الصحيح ، لأن شيوع الدين في كل مكان ، وقدمه في النوع البشرى ، بحيث لم يصادف الباحثون في أقدم عهود البشرية أمة أو قبيلة بغير دين - يشعر بأنه غريزى في النفس البشرية ، فإن كل ما عُلم عنه يدل على أنه كذلك ، فمن شأن الغريزة الطبيعية أن تعم جميع أفراد النوع ، وأن تكون فيه اضطرارية لا اختيارية ، وأن تكون ذات طبيعة واحدة ، وذات وجهة واحدة . وهذا كله ينطبق على الدين في النوع البشرى .

فاذا لم يكن الدين غريزياً لوجدت أمم وقبائل غير متدينة ، كما هو شأن كل أمر غير غريزى . ومن الغريب أن الأمم عاشت منعزلة بعضها عن بعض آماداً طويلة لا تحلم واحدة منها بوجود الأخرى ، فلما تم اتصالها بعد استكشافها وجدت أنها متدينة على الأسلوب نفسه الذى عليه كل أمة في الأرض ، أفلا يدل هذا دلالة محسوسة على أن التدين غريزة قاهرة في النفس البشرية ، وليست صفة مكتسبة من قبل ؟

يقول الفلاسفة الماديون : إن الدين نشأ من خطأ في التعليل ، وهل الإنسان في سذاجته كان يفرع إلى تعليل الحوادث التى تصيبه ، كما يفرع إليها الذى وصل عقله إلى درجة ما من درجات الارتقاء ؟ هب أنه كان يلجأ إلى التعليل ، فهل يصل أفراد النوع كلهم إلى علة واحدة ، وعلى نوع معين منها ، بحيث لا يوجد خلاف بين جميع أفرادهم إلا في التسمية فقط ؟

هذا بعيد عن التصور ، ولا يمكن قبوله لا علميا ولا فلسفيا ، وإلى أعجب للذين يقبلونه وهم يرون وهيه إلى هذا الحد ! لكنهم مضطرون لقبوله على علانه ، لأنهم إذا لم يفعلوا اضطروا للقول بوجود غريزة دينية في النفس البشرية . وهذا يضطرهم للبحث عن مصدرها ، فإذا اتجهوا هذه الوجهة استند عليهم باب الوراثة الحيوانية ، لأن الحيوانات مجردة من التدن ، بل قال كبير الفيزيولوجيين الأستاذ كاترفاج الفرنسي : إن الفارق المميز بين الإنسان والحيوان هو التدن ، أما سائر الصفات النفسية من حب وبغض وأمن وخوف إلخ ، فهي شائعة بين الإنسان والحيوان على أقدار متفاوتة .

وإذا لم تكن تلك الغريزة وراثية فكيف نشأت في النوع البشري طفرة ، وأمثال هذه الطفرة محال عندهم ، لأنهم لو قالوا بإمكانها اضطروا لنسبة التدن إلى عامل فوق الطبيعة يكفي لترسيخه في نفس الإنسان وتعميمه بين جميع أفراداه ؟

ولما كان من المتعذر قبول رأى الماديين في أن التدن أصله تعليقات باطلة للحوادث الطبيعية بعد ما حللناه التحليل الذى رأيت ، فلم يبق إلا القول بأنه غريزة في النفس البشرية غرزها فيها بارئها . وهذا ما يصعب عليهم أن يقبلوه هم ، لأنهم لا يعقلون وجود بارئ للكون ، وما ذنبنا نحن معشر الذين نعتقد بوجود بارئ للكون أن نُكَلِّف تعليلهم للتدن بتصديق ما لا يعقل ؟

من شبه هؤلاء الماديين أن الدين نشأ ساذجا ثم ترقى بترقى العقول والعلوم ، وهذا القول منهم غريب لأن الدين ينحصر في كلمتين : الخضوع لموجد الكون ، والتقرب إليه بالصالحات . والقرآن الذى هو آخر الكتب السماوية نزولا يصرح بهذه الحقيقة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ ^(١) ، وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢)

(١) سورة النساء : ١٢٥ .

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

أى أن الدين الحق هو ما فطر الله النفس الإنسانية عليه من الاعتقاد بقدرته لا حد لها صورت هذا العالم وأبدعته ، ومن العمل بما هي مفطورة عليه من القوانين الباعثة على التكمل .

من هنا يرى أن الدين يعلن القرآن أنه أصل الأديان كلها هو من البساطة بحيث يعبر عنه بكلمتين : (الإيمان والإحسان) ، وكل ما ورد بعد ذلك في القرآن فهو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وتفصيل للأحكام وتعليم للإنسان وجوه العبادة الموصلة إلى الكمال النفساني .

فإذا كان الدين من البساطة عند هذا الحد ، كما يصرح به آخر الأديان نزولا ، فمن أين نشأت شبهة الفلاسفة الماديين ؟ إنها نشأت بلا شك من ذهاب قادة الأديان المختلفة مذهب التوسع في فهم هذين الأصلين ، فتكونت شروح وتأويلات نقلها الخلف عن السلف ، وزادوا عليها وقدموها للشعوب باعتبار أنها من الدين ، فأصبحت الأديان بذلك مجتمع أفكار بشرية ، صبغت بصبغة إلهية ، ثم تحجرت بمرور الزمن عليها ، فضاعت في أطوائها بساطة الدين الفطرية ، وجاءت الفلسفة العصرية تناقضها الحساب وتنازعها السلطان على الأرواح .

ولكن الإسلام لبقاء كتابه بمنجاة من التحريف ، بقيت آياته الموحاة ظاهرة للعيان ، و متميزة عن الشروح التي علقت عليها ، فإذا وقع نقد من العلم على شيء من أشياء المسلمين ، فلا يقع على الأصول الموحاة ، لأنها أصول علمية عامة اتفق البشر على صحتها وإطلاقها ، ولكنه يقع على الشروح البشرية التي علقت عليها ، وهو مما يمكن الرجوع عنه إلى الصواب . وما أثر عن شراح المسلمين أنهم كانوا لا يأتون بفهم لهم إلا عقبوه بقولهم : (والله أعلم) ، ولم يحرموا على أحد نقده وتحريجه . ولو لم يصب المسلمين فتور في بضعة القرون الأخيرة ، ولم يجمدوا على ما وجدوه لا يفكرون فيه ولا يتفحصونه ، لكان كل ما شرحت به آيات القرآن موافقة اليوم لأقصى ما وصلت إليه العلوم الكونية من الثمرات العلمية .

على أنه مهما تكن الحال فإن جوهر الإسلام لا يلزمه ما عسى أن يكون قد أخطأ بعضهم في فهمه ، أو قصر فيه عن مداه تأثرا بأحوال عصره ، فشبهة العلم التي أوردها الفيلسوف (جيو) لا تتناول الإسلام فيما تناولته من سائر الأديان .

يقول (جيو) : إن الفلسفات الحسية لا ترى في الأديان إلا ما رآه أجوست كومت وهو أنها وثنية خشنة . فهب أن أقدم ما يعرف عن الأديان هي الوثنية الخشنة ، فهل هذا ينفي أن العاطفة التي دعت إليها أرقى وأشرف عاطفة بشرية ؟ ألم يبدأ كل علم عال وسواسيا خشنا فما زال يترقى ويتهذب حتى وصل إلى درجة عالية من النضج والصقل ؟ فهل الميول التي دعت إلى هذه العلوم يقدر في سموها أن لا يصل الإنسان إلى مرامها طفرة ، وهو محتوش بكثير من القواطع المادية ، والعواثر الطبيعية ؟ أليس يدل على سموها وعراقتها في الكرامة أنها دفعت الإنسان رغما عن هذه القواطع والعواثر إلى غايات بعيدة من فهم بعض الوجود ، وفهم شيء من قواه ونواميسه العاملة فيه ؟ فكذلك الدين لا يقدر في شرفه وكرامته أن لا يكون الإنسان قد فهمه على أحسن وجه وهو في أحسن أدوار جهالته ، وأهلك عهود حمايته . ومن يوفقه الله للاطلاع على فتوحات العلم في الشئون النفسية في القرن الأخير تتبين له حقائق يخجل من أنه كان يسعى في إبطائها بدون دليل ^(١) .

* * *

(١) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الثامن ، شعبان ١٣٥٧ هـ (صفحة ٥٠٥) .

obeikandi.com

الإيمان بما فوق الطبيعة أساس لبقاء النوع الإنساني وترقيه

اشتدت الفلسفة المادية في القرن الماضي في نشر أصولها ، معتمدة على ما كشفته العلوم الطبيعية من مساطر القوى الكونية ، ذهابا من قادتها إلى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضى إلى نضج القوى العقلية الإنسانية ، ويكون أثر ذلك على الأخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيا لا تشوبه شائبة ، وكإلا علميا وعمليا يؤدي الإنسانية إلى عهدها الذهبي المنتظر ، دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

وقد بذل أشياخ هذه الفلسفة جهد الجبايرة في نشر مبادئهم ، فأكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا إلى طبع المؤلفات التي تؤيد مزاعمهم طبعات رخيصة الثمن لتنتشر بين الطبقات الدنيا من الشعوب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد العامة في شئون ما فوق الطبيعة ، وأصبح الاستخفاف بالمقررات الدينية ، واعتبار قادتها وممثلها من العاملين على صد النفوس عن الاشتراك في بناء العالم الجديد الخالص من شوائب الرجعية ؛ فكانت ثمرات هذه الجهود التي بُذلت ، انتشار روح التمرد في الطبقات العاملة ، واستهتار أصحاب الأموال في جمع الثروات ، وإنفاقها في اللهو والقصف ، والتفنن في ضروب اللذات ؛ ونشأت من هذا الوضع مذاهب متطرفة بين العمال وما في حكمهم ، تذرعت بكل صنوف الوسائل المدمرة للوصول إلى نظم اجتماعية لو تحققت لكانت وبالا وبيلا على المجتمعات المتقدمة ؛ بل تألفت أصول اجتماعية اعتبرت مثالا غليا ، على حين أنها حالات استثنائية تولدها الضرورة ثم تزول بزوالها .

كل هذا لا يُظهر بوضوح تأثير المذهب المادى في إنتاجه ، ولكن هذا التأثير يظهر في تدهور الآداب العامة ، وفي ارتخاء الرُّبُط الاجتماعية إلى حد أن اعتبرت تلك الرُّبُط في بعض الجماعات من بقايا العصور الهمجية التي يجب العمل على حلها .

أما تدهور الآداب في القرنين الأخيرين فلست في حاجة إلى بيان أطواره ؛ فقد أصبح كل ما كان يعتقد الناس إفراطا أو تفريطا ، أو تجاوزا لحدود الأخلاق العالية ، يعتبر من بقايا الوسوس العتيقة . ففي البيت أصبح الأولاد يشبون على عصيان آبائهم وأمهاتهم ، مستلهمين هذه الحالة عنهم ، فقد نشأ التدافع أول الأمر بينهم ، فالأولون ببقية من الغيرة أرادوا أن يخلوا من حرية زواجهم تحقيقا لمبدأ القوامة الفطرية عليهم ، فنشأت مشادات بين الفريقين ، انتهت بخذلان الرجال ، وكان خذلانهم بعاملين ؛ أحدهما تسممهم بالمادى المادية ، وثانيهما بسيادة الروح الإباحية في الخارج ، فأقروا بخطة خسف ، وانتهى أمرهم بالتسليم بدون قيد ولا شرط ؛ فكيف في بيئة مثل هذه أن تُحمل النابتة على اتباع طريقة أدبية ، وما فائدتها في بيئة هي مثال الانحلال والتدهور ؟

على هذا النحو عمت الفوضى البيوتات ، وتعدتها إلى دور الدراسات ، حتى أصبحت مهمة التعليم عبئا ثقيلا على القائمين بها .

أما من ناحية الربط الاجتماعية فقد أصابها من الارتخاء ما وصل إلى أشد درجات الخطورة . ومظاهر هذه الخطورة قيام الاعتصابات لأوهى الأسباب ؛ فبينما يكون دولا الأعمال على أكمل ما يكون من النظام إذا ببادرة اعتصاب في بعض فنام العمال ، لا يلبث أن يعم جميع الذين يعملون مثل عملهم في جميع أرجاء المملكة ، فيصبح الناس إما لا يجدون خبزاً يأكلونه ، أو نورا يستضيئون به ، أو وسائل نقل تقرب بين مساوفهم ، وتحمل تجارتهم ، أو وقودا يدير آلاتهم ، ويدفع عادية الزمهرير عنهم . وكلما استرضيت طائفة خلفتها أخرى ، بغير مبالاة ، بما يستتبع هذه الإضرابات من وقف الأعمال ، وإرباك الأحوال ، وسقوط الوزارات ؛ وأكثر ذلك لا عن ضرورة ماسة ، ولكن تطلعا لولاية الحكم ، وتربصا للفرص لنيل بعض المآرب المادية ، وقد أصبح هذا الداء مستشريا إلى حد أنها لا تكاد تفرغ الجرائد من حوادث اعتصاب ، حتى تشتغل بغيره ، وهلم جرا .

وأشد خطرا على الإنسانية من هذا كله موت عاطفة التراحم بن الجماعات المختلفة ، والذهاب في الخصومات إلى أبعد حدود القسوة والغشمية ؛ فالأهم المتجاوزة المتوحدة في ديانتها وثقافتها ومدنيتها ، قد تتخالف في سياساتها ومطامعها ،

فبدلاً من أن تعمل على تقريب وجهتي نظرها ، وتجهدا في وجدان تسوية عادلة بين مصالحهما ، تعمل كل منهما على حرمان جارتها من حاجتها ، والاستئثار بكل الفوائد دونها ، فلا تجد الموتورة منهما إلا اللجوء إلى القوة في الحصول على رغبتها ، فتقع بينهما حرب ، والحرب وسيلة وحشية ، فهي تناحر لا يصح وقوعه بين الأمم التي تعقل اليوم نتائجها من الخراب والدمار . وقد تجر هذه الحرب الدول التي تمت إلى كل من المتخاصمين بسبب ، فتنقلب إلى مجزرة عامة بين أم تملك كل منها من آلات التدمير ما لا يصح استخدامه لإهلاك بعضها بعضاً .

حدث كل هذا في كل أدوار الانتقالات الاجتماعية ، حيث لم تكن وسائل الإقناع مغنية ، وبقي إلى اليوم وفي العالم محكمة دولية للعدل ! وفي هذا دليل محسوس على أن الأمم بعد أن بلغت هذه الغايات البعيدة من فهم الحقوق الطبيعية ، وذاقت ثمرات السلام في النواحي العلمية والمدنية ، لا تزال تنغلب عليها النزعة الوحشية ، بل تفاقم شر هذه النزعة فيها إلى حد أنها تندفع إلى الخضوع لها ، وهي تعلم أن نتيجة ذلك إهلاك النوع الإنساني ، وتجريده من كل ما كسبه من ثمرات المدنية والاكتشافات العلمية .

كل هذا أثر الفلسفة المادية ، لأنه يتماشى ومبادئها من تنازع الحياة ، وبقاء الأصلح ، وقيام الأقوياء على أنقاض الضعفاء ، وما اختنت به العقول من أمثال هذه الكلمات الفارغة التي لو بقيت ، لأدت النوع البشري إلى عهد من الوحشية لا يمتاز عما كان عليه النوع الإنساني في أول عهده بالوجود .

هنا يشعر القارئ بأن النوع الإنساني ينقصه لأجل أن يحيا حياة طيبة ، ويزداد علماً ورقياً إلى ما لا حد له يقف عنده ، إلى عامل أدنى يحد من نزعة الوحشية ، ويصده عن الانقياد لطبيعته الحيوانية . عامل يلامم ما متع به من روح علوى ينزع به إلى السمو الخلقى ، والرقى الأدبى ، والترفع عن التوحش الحيوانى . هذا العامل الأدبى هو ما حمله الدين إليه من الاعتقاد بعالم ما فوق الطبيعة . والذى يسهل على الدين مهمته العظيمة ، ويسوغ له الإدمان على الدعوة إليه ، أن الإنسان قد أدرك وجود هذا العالم العلوى من يوم ظهوره على الأرض ، ولا يزال على ما كان عليه إلى اليوم ، بل زاد شعوراً به وشوقاً إلى الاستزادة من معرفته .

نعم إن الإنسان أطلق العنان لخيالاته في إدراكه لذلك العالم ، فما ترك شيئا مما يتصوره من كائنات روحانية ، وشؤون علوية ، إلا ألحقه به تحت أسماء واختصاصات شتى ، تخالفت الشعوب فيها تخالفا كبيرا ؛ ولكنها اتفقت جميعها على أن ذلك العالم العالى هو مصدر القوى العامة ، منه تشع على جميع الكائنات ، وإليه يرجع تدبيرها وتقويمها ، وأن العالم الظاهر للحواس منفعل له انفعال الجسم للروح ، والمادة للقوى التى تدبرها .

ولما اتسعت للإنسان آفاق المعارف الطبيعية ، زاد تعلقه بذلك العالم واعتقد أن فيه مثلها العليا وغاياتها البعيدة..

وجاءت الأديان فأيدت الشعور الفطرى به لدى الإنسان ، وأزالت عنه ما ألحقته به طفولة الأثم من الأباطيل والخرافات ، وجعلته مصدر أمر الله ونهيه ، ومنتزل قدرته التى تمد الكائنات بما يربها ويكملها ، ومشوى الأرواح والملائكة ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من المشاهد العلوية ، والأنوار القدسية .

فالنفوس البشرية الممتعة بالعقل والإدراك ، والشعور الحاد بالجمال والقبح ، إذا نالها البشم من معاناة الحياة الأرضية ، وأصابها الرهق من مغالبة حوادثها ، وشعرت بالهلع والوحشة من تعاقب الكوارث عليها ، لجأت إلى ذلك العالم المحجوب عنها ، فاستمدت منه القوة والصبر على تكاليف الحياة ، واستلهمت الروح الذى يشع منه المبادئ العليا لمعالجة العوادم التى تحيط بها من كل جانب ، فتشعر بنفحة مشجعة ، وطمأنينة مثبتة ، قد لا تبلى بعدها إذا لقيت حتفها ، لأنها تعتقد أنها ستنقل بعد هذا الجهاد الموبق إلى ذلك العالم العالى ، لتعيش فيه مع الأرواح العالية ، والنفوس الطاهرة .

لا جرم أن الشعور بوجود ذلك العالم يجعل للحياة الإنسانية ، وللعنت الذى يصيب الإنسان فيها معنى ساميا ، وعاقبة معقولة ، ويحملة على ملازمة الخلال النبيلة ، والمبادئ القويمة ، خلافا لمن لا يعتقد بوجوده ؛ فإنه إذا تجهمت له الحياة فكر فى ارتكاب الجرائم ، واقتراف المآثم ، ولم يبال بشيء غير نفسه ؛ فإذا عمت هذه العمية حتى صارت عقيدة لأمة ، فإنها تتجه إلى طريق الشر ، فلا تحترم عهدا ، ولا تلتزم

ميثاقا ، فإذا قاتلت وانتصرت ، نشرت الرعب في النفوس ، وأشاعت الظلم في الأحكام ، وما تزال ترتكب منكرات تليها منكرات ، حتى تصادفها قوة أكبر من قوتها فتلحقها بالأذلين .

فإذا استشرى هذا الداء الإلحادي ، واعتنفته الأمم ، وأثمر العلم من الأسلحة المدمرة ما يكون استعماله وبالا على الحضارة الإنسانية ، فإن تلك الأمم لا تتأخر عن استخدامه فتهلك الحرث والنسل ، وينتهي العالم بعد هذا الدور من التناحر إلى حالة من البؤس لا يرضاها أشد الناس عداوة لبني نوعه .

ولقد كانت المبادئ الإلحادية قد قويت شوكتها في القرنين الثامن والتاسع عشر فكان ثمرة ذلك حدوث حريين عالميتين ، لم تراع فيهما المرحمة الإنسانية ، ولا العدالة العرفية ، فضرب المتحاربون المدن بالقنابل الضخمة غير مباليين إن كانوا يقتلون بها جنوداً في خطوط النار ، أم الأسر الوداعة المكتظة بالنساء والولدان ، والهرمي والزمني منهم ، فأبادوا ملايين من النفوس البريئة رغما من التمدن المادى الذى أفاده العلم للناس ، ولم يغن بعض ما كانت تغنيه العقيدة الدينية في مثل هذه الأدوار الحرجة .

ولو اتفق اختراع قنابل أشد فتكا كلقنابل الذرية ، وحدثت حرب جديدة ، لتراشق بها الخصوم ، ولإذ ذاك تتصوح زهرة المدنية ، ويخبو نورها ، وترتكس الجماعات البشرية إلى أسوأ مما كانت عليه أيام جاهليتها الأولى .

وليس بعد هذه التجارب المحسوسة دليل على أن العلم الطيعى لا أثر له في تهذيب النفس الإنسانية ، ورفع كابوس الوحشية عنها ، اللهم إلا ظاهراً من التقاليد الأدبية يستخدمها الناس في مقابلاتهم ومعاملاتهم ، وقلوبهم من الإنسانية الفاضلة ، والكمالات الخلقية هواء .

هنا يعترض علينا معترض فيقول : إن ما ذكرته عن الوحشية المستكنة في نفوس التمدنين ، رغما عن بلوغهم الغايات البعيدة في العلوم الطبيعية ، صحيح لا يمكن التماهى فيه ، ولكن تاريخ الجماعات في أشد أدوار حماسها الدينية لم تخل من قساوات أسوأ مظهراً ، وأفظع مخبراً مما ذكرت . ألم يذبحوا مخالفهم في الدين ذبح الأغنام ، ألم يلقوهم جماعات في النيران ، ألم يرموا بهم من شواهد الجبال

لا لشيء غير أنهم لا يدينون بدينهم ، ولا يتعبدون بكتابهم ؟

نقول : نعم ، حدث كل ذلك من الجانبين ، ونحن لم نقل إن العقائد وحدها تبليغ الجماعات إلى المثل العليا من الكمال الصحيح دون أن تستضيء عقولها بأنوار المعارف الكونية ، وتشبع نفوسها بحكمة الدين الحق ؛ لذلك جاء الإسلام داعياً إليهما معاً ، فقال تعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ ، حتى أنه حصر كمال العلم بالله والوقوف عند حدوده في العلماء ، فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

ودعا النبي ﷺ إلى طلب العلم ، وحث عليه في أقوال أثرت عنه تثبت مثلاً علياً في التحضيض عليه ؛ من ذلك قوله : ﴿ يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، فيرجح عليها ﴾ وقوله : ﴿ لموت عالم أشد على الله من موت قبيلة ﴾ وقوله : ﴿ اطلبوا العلم ولو بالصين ﴾ .

فالجاهل إذا تدين ولم يجد من تربيته البيئية ، ولا من ثقافته الحكيمية ، من يردعه عن الشطط ، تخيل أن في التنكيل بأعداء دينه ، والعدوان عليهم وسائل تحظيه من الله بأجزل المثوبات .

ومن الأمثلة التي نسوقها لبيان سمو الإسلام ، أن رجالاً دخلوا فيه وآباؤهم كانوا لا يزالون على كفرهم ، فسألوا النبي ﷺ : هل يقتلونهم إن صادفهم في كتائب الأعداء ؟ فنهاهم عن ذلك احتراماً لحرمة الأبوة ، بل نهاهم أن يقتلوا من أعدائهم الطاعنين في السن ، والمصايين بمختلف العاهات ، والنساء والولدان وخدم المقاتلين ، ورجال الدين ، وحظر عليهم حرق دورهم ، وتقطيع أشجارهم ، وطلب إليهم أن لا يقتلوا أسراهم ، وأن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقتلوا المستسلمين ، فاتفق أن أحد أصحاب النبي قتل مستسلماً ، فغضب النبي ﷺ من ذلك وقال له : ﴿ إني أبرأ إلى الله من عملك ﴾ فقال إنه استسلم والسيف يهوى على رأسه تفادياً من القتل . فأجابه النبي : وهل كشفت عن قلبه ؟ إننا أمرنا أن نأخذ بالظاهر .

كل هذا يدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ درجة الكمال النفسى إلا بالدين مقترناً بالعلم ، وليس بأحدهما دون الآخر . بهذا التحديد العظيم في آخر أدوار الإنسانية جاء الإسلام ، فجعل الدين والعلم توأمين متلازمين ، وعاملين متكاملين ،

وضرب أهله في الأرض متشجين بهذه الحقيقة ، فلم يجدوا علما إلا تدارسوه ، ولا فلسفة إلا اطلعوا عليها ، عاملين بقول نبيهم ﷺ : « خذوا الحكمة ولا تبال من أى وعاء خرجت » و « خذ الحكمة ولو من مشرك » ، فاستقدموا العلماء والحكماء من كل قطر ، وتركوهم على دينهم ، وأجروا عليه الأرزاق بسخاء لم يسمع بمثله في أمة قبلهم ، وكلفوهم ترجمة كتب العلم والحكمة ، وأكبوا عليها درسا ونقدا ، وتحريراً وتقريراً ، حتى بلغوا الغاية منها ، وزادوا عليها زيادات لا تزال محل إعجاب أئمة التاريخ إلى اليوم .

ولو كان دينهم لم يحضهم على طلب العلم هذا التحضيض الذى لم يؤثر عن أية أمة سواهم ، لبقوا على جهالتهم ، فانقلبت فتوحاتهم شرا عليهم وعلى البشرية ، ولبادوا كما بادت الأمم المتعصفة قبلهم ، ولما بقى لهم ولدينهم الأثر الذى بقى إلى اليوم وسيبقى على الدهر .

فعلى المسلمين أن يدرسوا هذه الناحية من تاريخهم ، فهى التى ستجعل من دينهم مفزعا للعالم كله فى مستقبل ليس بعيدا عنا ، وقد بدت بوادره فى الأفق ؛ فهلم لتحقيق هذا العهد الكريم ، عهد الإسلام الحق ، دين الإنسانية أجمع .

أما وقد بلغنا إلى هذا المدى ، فالذى بقى أن نقوله إن المدنية القائمة أصبحت مهددة بالزوال من ناحية العلم ، إذا لم تسعف بالعقائد الصحيحة . وقد أكرم الله هذا النوع الكريم فكشف له فى هذا الزمان الأخير من البينات المحسوسة ، على شرطه فى دراسة العلوم الكونية ، ما يوجد له إيمانا راسخا بما فوق الطبيعة ، وبقاء الأرواح بعد تركها للأجساد ، بما لم يدع شكاً لمرتاب ، ولا حجة لمتردد : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) ^(٢) .

* * *

(١) سورة الذاريات : ٢٠-٢١ .

(٢) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، الجزء الخامس ، سنة ١٣٦٧ هـ ، (صفحة ٣٨٥) .

obeikandi.com

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليكون ديناً عاماً للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكناً بتواصل أممها ، وتعارف جماعاتها ، وتبادل تجاراتها وثقافتها ، وقد اطردها التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بوادر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال ، وصارت وحدة الدين أمراً لا بد منه ، بل أضحت في حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد في الشؤون الإنسانية . وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق في مطالبها ووسائلها وغاياتها ، فإن تخالفت في بعضها فإنما هو تخالف عرضي سببه تخالفها في درجات ثقافتها ، وتباينها في أساليب تفكيرها . ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات ، تأثيراً خطيراً في المباعضة بين الشعوب ، ولكن الكوارث الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم ، للعيش في بلاد البعض الآخر ، تحت ضغط العوامل الاقتصادية ، كل ذلك أثر في عقلية الجماعات البشرية ، وأضعف من شدة الروابط الجنسية ، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب ، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب .

فالوحدة العالمية في طريق التكون ، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية ، أو منازعات استعمارية ؛ بل تكلم كبار المتصرفين في شؤون الأمم ، في توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات ، مما يكثر في بعض المستعمرات دون البعض الآخر ، على الأمم التي تحتاج إليها ، قطعاً للنرائع الخلافات الدولية التي تجر إلى الحروب الوحشية . بل حدث ما هو أبلغ من ذلك في موضوع الوحدة العالمية ، وهو نشوء رأى جديد لم يكن له أثر في العالم الإنساني ، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل ، فتتظر في مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة الواحدة في مصلحة أمتها . وقد نادى بهذا المبدأ منذ ستين جماعة في أمريكا ، وصرح رجالات من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجماعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الإنساني طبعى محض ، ولا يحول دون تحقيقه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الأجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل في مصائر الأحوال ، ير أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجياً بانتشار اللغات ، وبت ترجمة المؤلفات ، وبتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تقوى يوماً بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطيارات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التى كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوماً بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها فى ساعات معدودة . وقد تتحسن هذه الأداة إلى حد بعيد حتى تصبح المساوف الشاسعة التى تفصل بلاد العالم كأنها قرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها فى اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا إلى أى مآل تؤول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والأشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التى لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأُمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، إلى ما يضع حداً لمتابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحمىهم غوائل أنفسهم ؟

إذا صح كل هذا فلا محيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تتسرب إليهم . وتجيء وحدة التربية والتعليم فتكسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام العتيقة ، فتنبه الفطر لقبول دين عام يكون من السمو فى العقائد ، والتنزه عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة فى أرفع معانيها ، فتتجه الأفكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولاً ، وقد صرح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع ما يرجو الناس أن يجوده فى الدين العام من الأصول والوسائل ، لما ساورك شك فى أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت في بيان الأسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو في التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم في تجريد الناس من العقائد ، وفي اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج في تقديرها للوجود وقواه وعوالمه . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب في أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، اتضح للعلم في هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين في جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهراً للوساوس ، ولكن تعبيراً عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أى حينما تحقق بعد بذل جهود مضنية في البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى في هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثقافة وعلم ، لتتابع رقبها في عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء في كل أمة متمدنة عشرات من السنين في تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التنويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالأرواح التى تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين في تمحيص هذه البحوث الأسلوب العلمى على أكمل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التى توسلوا بها ، في مؤلفات قيمة لا سبيل إلى تجرييحها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة في أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم في كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يجمل بنا أن نسرد للقارئ ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادئ الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكاً أن الإسلام هو الدين الذى لا يحصى عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرق العقلى ، والتقدم العلمى ، وأنه سيصبح في آخر الزمان دين العالم كافة ، فأليك بإيجاز :

- ١ - الإسلام لا يضع لرق الإنسان العقلى والمادى جدا .
 - ٢ - ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضاً لا يصح أن يلتفت إليه .
 - ٣ - ويحضه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيراً من العبادة .
 - ٤ - ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركاً .
 - ٥ - ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .
 - ٦ - ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها .
- فقد قال النبى ﷺ : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .

فالإسلام بهذه المبادئ الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الحيلولة بين المفكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظم بما هو أفضل منها ، أو على تهتة أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا محيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . وهو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحاً أمام أهله لبلوغ المثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانقسامات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً^(٥) .

* * *

العالم يجب أن تتعارف شعوبه

كانت الأمم إلى عهد الدعوة الإسلامية منقسمة إلى جماعات وقبائل وشعوب وأمم مستقل بعضها عن بعض ، لا تجمعها جامعة دينية ولا مدنية ، بل كانت متعادلة متناحرة كأن بينها ثارات موروثه ، حتى أن القبائل التي تعتزى إلى جنس واحد كانت على هذه الشاكلة من التعادى والتناحر . وقد مضى على الناس ، وهم على هذه الحالة ، آلاف من السنين لم يقم فيهم رجل واحد بدعوة إلى توحيد هذه الجماعات تحت ظلال أعم رابطة تجمع بينها ، وهى الإنسانية ، مع أن كثيرا من هذه الأمم بلغت شأوا بعيدا من المدنية ، كالأمة الصينية والهندية والمصرية والبابلية إلخ ، ثم تلتها الأمم اليونانية والرومانية والقرطاجية ، وقد بلغ فيها العلم والفلسفة إلى حدود بعيدة ، واتصلت لديها العقلية الإنسانية بأوج عال من المدركات التجريدية ، ومع ذلك ظلت على ما كانت عليه من الانقسام المزرى بكرامة ما كانت عليه من الفلسفة والعلم والمدنية . أفلا يكون من العجب العاجب أن تظهر هذه الدعوة لأول مرة فى تاريخ البشرية من صميم جماعات شتى لم تصل بعد من أطوار الاجتماع إلى درجة شعب أو أمة ؟

لا جرم أنها دعوة حارقة للعادة ، ولا يعقل تولدها فى قبائل لم تصل بعد إلى ما عليه غيرها من الوحدة الجنسية الخاصة ، فكيف تطفر إلى الوحدة النوعية العامة دون أن تتجاوز أدوار الاجتماع الأولية ؟

هذه مسألة تحير الباحث عن العلل الأولية لأطوار المجتمعات المتتالية ، فندعها الآن وننظر فى موضوعنا نفسه من الناحية الفلسفية ، فهل من الممكن أن يوجد بين الأمم تعارف يفضى إلى إبطال الحروب ، وإلى التعاون على الاضطلاع بتكاليف الحياة ؟

يقول بعض الباحثين نعم ، ويقول بعضهم الآخر لا . فمن يجيب إثباتا يعتمد على ما سيكون فى المستقبل البعيد من الوحدة العلمية والوحدة العملية والوحدة الاقتصادية ، مستنداً إلى أن الأمم تتقارب فى ثقافتها العلمية تقارباً محسوساً سيتأدى

بالجری علیه إلى الوحدة ، لأن العلم ما دام قائما على دستورهِ لا يمكن أن يختلف في بلد عنه في بلد آخر ، والتوحد العلمی يتبعه التوحد العملی والاقتصادی ؛ ومن جهة أخرى التنازع بينها یجرها إلى الفوضى والانحلال ، من هنا ستضطر محفوزة بحب البقاء إلى التفاهم فيما بينها ، وحل مشكلاتها على وجه ما تفاديا من استخدام القوة للحصول على أغراضها .

ثم إن المواد الأولية التي هي محل النزاع بين الأمم غزيرة في الأرض تكفي جميع سكانها وتزید عن حاجتهم ، فلا موجب لاختصاص بعض الأمم بها وحجبها عن سائرهما . وقد تفاوضت الأمم ذوات المستعمرات الكبيرة وتراضت على توزيعها على مقتضى العدالة ، باعتبار أن الاختصاص بها مثار أكبر الحروب العالمية .

فهذه المقدمات إذا تمت كان تعارف الجماعات البشرية من ثمراتها الأولية .

أما الذين يقولون بعدم إمكان تعارف الأمم ، فيعتمدون على ما بين الجماعات البشرية من العصبية المختلفة من جنسية ولغوية ودينية ، وعلى استبعاد تراضی الأمم على توزيع المواد الأولية فيما بينها بالعدل ، وعلى ما تشعر به الأمم الكبرى من الكبرياء والغشمية في معاملة الأمم الصغرى .

والذى يثلج عليه الصدر هو أن كل هذه الحوائل يمكن أن تزول بتأثير الروح الديموقراطية وتأصلها في النفوس ، وما ينضم إليها من كراهية الحرب واعتبارها بقية من بقايا الوحشية ، ووسيلة غير جديرة بكرامة الإنسانية .

والمشاهد المحسوس أن الأمم تعمل جاهدة على إبطال الحروب بإقامة محكمة دولية تفصل في كل ما يشجر بين الجماعات من خلاف ، وتأليف جيش عالمي يوجه لتأديب كل جماعة تخرج على هذا النظام العام ، . فإذا تم للأمم المجتمعة اليوم وضع هذا النظام ، تم التعارف المنشود بين الأمم ، وتحقق حكم القرآن في أن هذه الأمم خلقت لتعارف وتتعاون ، ولم تخلق لتتناكر وتتناهب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) ، فكانت هذه الآية الكريمة

من المثل الإسلامية العليا التي أنزلت إلى الآخذين بهذا المبدأ ليكونوا في مقدمة الحاملين لرسالة المدنية ، والروح الديمقراطية ، والوحدة العالمية .

والناظر في تاريخ الأمم الاستعمارية يجد أن أية أمة من الأمم لم تنظر إلى الأمم الخاضعة لها نظرة أخوية غير الأمة الإسلامية ، عملاً بمبدول هذا المثل الأعلى . فقد كانت المعاملة العادية للأمم المقهورة هي نظام العبودية إلى أقصى حد ، بحيث لم تتقرر حقوق لها تطالب بها أمام العدالة ولا أمام الرأي العالمى العام ، وأسوأ ما شوهده من أحوال الاستعمار معاملة الدولة الرومانية للأمم التي خضعت لها ، فقد كانت تعاملها معاملة الأسرى لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ولم يكن لما يصيبها جملة أو بعض آحادها من المظالم صدى يتردد في ناحية ما ؛ ولو وصل همس منه إلى آذان الحكومة القائمة ، أهملته كأنه لم يكن . فإذا قابلت هذا العسف الشائن بما كان عليه الأمر عند المسلمين أيام صولتهم ، وجدت فارقا لا يمكن إدراك مداه يدل على أن العدل الإلهى نشر روحه على هذه الجماعات المقهورة فرفعها إلى درجة الأخوة للأمة الغالبة التي كان لها في ذلك العهد خلافة الأرض .

ماذا أقول ؟ وجدت أن هذه الأمة الغالبة قد جعلت ممن تغلبت عليهم هيئة أمم متحدة تحكم بقانون واحد ، وتعامل بالمساواة المطلقة ، لا فرق بين قاهر ومقهور ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين أبيض وأسود .

هذا لا يكاد يصدق ، ولكنه ثابت مقرر لا سبيل للشك فيه ، وقد أفضى إلى نتيجة ضخمة لا شبيه لها في التاريخ ، وهي دخول الناس في هذا الدين جماعات جماعات ، بل دخلته أمم برمتها ، ولم يمض عليه مائة سنة حتى كان عدد أتباعه مائة مليون نسمة ، وأمكن أهله أن يؤسسوا ملكا لم ينبغ لأمة في التاريخ القديم ولا في العهد الحديث ، وفي الوقت نفسه بلغت من الرقى العلمى إلى حد كانت معه أمباطوريته المترامية الأطراف تنشر النور في جميع بقاع الأرض ، وكان لا فرق لديها بين بلد شرق وبلد غربى ، ولا بين عربى وأجنبى ، فعملت في الأندلس وفارس ومصر والمغرب وغيرها ما فعلته في عقر بلادها من تأسيس الجامعات ، وبناء المراصد ، وإشادة المكتبات ، ولم ترصد لنشر دينها جماعة كالتي يراها الناس في بلاد الشرق تابعة لبعض الدول ، اللهم إلا دعوة إلى الإسلام بالتي هي أحسن ، ودون تكالب على الناس ، أو تضيق عليهم .

ماذا تنتظر غير هذا من أمة كان من مثلها العليا أن الناس كلهم سواء ، وأنهم جميعا لأب واحد وأم واحدة ، وأن التفاضل بينهم لا يكون بالأصل ولا باللون ولا باللغة ، وإنما بتقوى الله والوقوف عند حدوده ، قلنا ماذا تنتظر منها غير هذه الآثار العمرانية ، والسيرة المثالية ؟ وماذا تنتظر من الأمم الأخرى التي كانت تزعم أن جنسها خير الأجناس ، وأن لغتها أفصح اللغات ، وأن لونها أدل على سموها من جميع الألوان ، وأن ما هي عليه من الدين أفضل الأديان ؛ قلنا ماذا تنتظر منها غير ما حفظه التاريخ من ظلم للمقهورين ، واستعباد لهم لا يعرف له حد فيقف عنده ؟ فكان الرجل يقتل الفرد أو الجماعة منهم فلا يطالب بدمه أو دمائهم أحد . وكان ينتهب أموالهم وينتهك حرماهم فلا يجد المتهم من يستعديه عليه ليحد من إيذائه .

هذه كانت حالة المسلمين وحالة الأمم الكبرى ، فما أعظم الفارق بينهما ! فارق لا يمكن فهم علته إلا إذا اعتبرنا أن ما كانت عليه الأمم من نظم ، اقتضتها طبيعتها البشرية ، وأوهامها التقليدية ، وأن ما كان عليه المسلمون تعاليم إلهية ، تنزلت عليهم من الأفق الأعلى ، لتدفع بالإنسانية إلى حالة من التطور ما كانت لتصل إليها بفضل مجهوداتها الذاتية .

ودلينا على ذلك أن الأمم المتقدمة ، وقد بلغت شأوا بعيدا من العلم والمدنية ، لم تصل حتى اليوم تحت تأثير الدوافع الطبيعية ، والحوافز الحيوية ، إلى مثل المبادئ التي استهدى بها المسلمون أول نشوئهم في تطوراتهم الاجتماعية .

وليس مما يعقل أن يفرض أنه قد يخرج هذا الانتقال الضخم في المبادئ الأدبية التي لم تصل أمة إليها في أى عهد من عهود التاريخ ، ولا أعظم أمة من أمم هذا العصر أيضا ، من صميم قبائل كان يأكل بعضها بعضا ، لا تعرف للإنسانية حقا ، ولا للعدالة رسما ، إلا ما تصوره لها أوهامها العتيقة ، وتقاليدها الموروثة .

فدليل الوحي الإلهي يتجلى في هذا المجال كسجله في كل مجال قارنا فيه الأصول الإسلامية بالمبادئ الإنسانية (٥) .

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثامن عشر ، سنة ١٣٦٦ هـ ، (صفحة ٦٠٥) .

الدفاع عن الأخلاق الصالحة

الدفاع عن الأخلاق الصالحة في الجماعات قديم الوجود ، لا لغرض ديني فحسب ، لأن بناء الاجتماع لا يقوم إلا عليها ، فلو تدهورت أو تحولت تأثر بناء الاجتماع بقدر ذلك . والاجتماع البشرى ليس كالاجتماع الحيوانى قائما على محض الغرائز الطبيعية ، بحيث لا يستطيع الحيوان عنها تحولا ، ولكنه قائم أيضا على علاقات أدبية بين الأفراد ، ورُبُط من ضروب شتى إذا كان بعضها غريزيا فهو في النوع الإنسانى كأكثر غرائزه يخضع لإرادته ، فهو مخير بين أن يقوم بحق الاجتماع فيؤدى لمجتمعه الواجب له عليه ، وبين أن يقصر فيه أو يهمله ، فيعرض وطائفة مجتمعه للوهن ، وروابط وحدته للتفكك . وهذا هو الذى حفز حماة المجتمعات من كل ضرب على تدارك هذه الحالة ، كل في الدائرة الخاصة به ، ليدفعوا عن وجود الجماعة شراً مستطيراً هو ارتقاء أواخى المجتمع ، وتداعى أركانه للاننيار بفعل أهله .

قل أن تصادف أمة كالأمة الإسلامية يشعر أهلها بقدر الأخلاق ، ويدركون مبلغ تأثير تدهورها في إضعاف دولتهم ، وإضاعة عزتهم . ولقد كان هذا التقدير وذاك الإدراك يكفيان في حملهم على التحلى بمناعة لا تضحل ضد كل انحراف خلقى أو عدوان أدبى ؛ أو على القليل يجعلهم أقرب إلى أمهات الفضائل من سواهم من الجماعات التى لم تبلغ بواسطة الأخلاق إلى مثل ما بلغوا ، ولا أضاعت بسبب إهمالها مثل ما أضاعوا .

هنا يحار الباحثون في تعليل هذا الموقف ، فمنهم من يعزوه إلى ضعف الإيمان في القلوب ، ومنهم من يرجعه إلى غلبة الجهالة على النفوس ، وسوادهم الأعظم يعزوه إلى الحرية التى أطلقت للناس يأتون تحت حمايتها ما يشتهون . والواقع أن العلة في عجز المسلمين عن معالجة أنفسهم بما لديهم من أصول الحكمة التى يشيدون بذكرها في مساجدهم ، ويتلاومون على إهمالها في مجالسهم ، مع تملئهم علما بخطورة ما هم فيه ، ترجع إلى أن العالم المتمدن كله أصبح اليوم ، بسبب الصلات الثقافية

والاقتصادية والأدبية ، أمة واحدة يتأثر مجموعها بما يتسلط عليها من الأهواء والأوهام والانحرافات المختلفة . فطيننا الاجتماعي وهو شخص الداء الذى بين يديه فى بلد مثل بلدنا ، يجب عليه أن لا يقف من تحليله عند حد حتى يصل إلى هذه العلة .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ونحن نستمع من العالم المتحدن كل معارفنا وصنائعنا حتى آدابنا وعاداتنا وأزيائنا ، فما اندفعوا فى شيء أو أقلعوا عن شيء ، إلا اندفعنا فيه أو أقلعنا عنه . وما نشكوه من تهتك الرجال والنساء ، ومن تطرف الكافة فى الإباحة والتسامح فيما لا يجوز التسامح فيه ، قد شكنا منه حكماء الغربيين فى القرن التاسع عشر ، وكتبوا فيه كتابات بلغت الغاية القصوى فى السمو ، ولكنها لم تفد فى وقف هذا الزحف الإباحى ، كما لم تفد كتاباتنا نحن الآن .

فما السر فى عجز الحكمة إلى هذا الحد فى أم تعرف مكانتها العالية من مجموعة الثمرات الأدبية للقوة العقلية الإنسانية ، وتعرف إلى جانب هذا آثار الأخذ بها على تقدم المدنية ، وآثار إهمالها فى دهورة تلك المدنية ، بل فى إسقاط دولتها ، وثل عرشها ، وإعادة الناس إلى دور الوحشية ؟

السر فى خيبة الحكمة مع التحقق من آثارها فى العالم سلبا وإيجابا ، هو تغلب المذهب المادى على عقول الناس ، ويأسهم من البقاء بعد الموت فى عالم بعد هذا العالم . فماذا ترجى من أحياء أدركت ذواتها ، وغرس فى جبلتها حب البقاء والخلود ، ترامت إليها تعاليم تجتهد فى أن تثبت لها أن لا روح للإنسان بالمعنى الذى تقول به الديانة ، وتؤيدها فيه الفلسفة ، وأن لا وجود لعالم يُدعى زوراً أنه موجود فوق هذا العالم ، والواقع أن الإنسان كالحیوان يعيش الأمد الذى قُدِّر له ، ثم يدركه الهرم فلا يزال به حتى يجعله حرضا ، ثم يحمل عليه حملة صادقة فلا يتركه إلا وهو جثة هامدة .

ماذا تؤمل أن تجد فى قلب إنسان تسكنه مثل هذه الثورة التى لم يُمن الإنسان بأوجع منها على قواده ، ولا بأقدر منها على إحداث انقلاب خطير فى كل وجهات نظره ، وفى مبادئه وغاياته ، وفى أخلاقه وآدابه ، بل فى صميم كيانه ؟

يضرِب بعض الفلاسفة مثلا بسيرة بعض كبار الملحدین ، من الاستقامة

وحسن السميت ، وجميل الشماثل ، وسلامة القلب ، ويدعون أن انتشار اليأس من الحياة الخالدة لا يجر في العالم الإنساني إلى شيء مما يخشاه الفلاسفة الاعتقاديون من الارتكاس إلى الوحشية .

نقول : إن وجود آحاد أو عشرات بل مآت أو ألوف من الملحدين ، على أحسن ما يرجوه الفيلسوف الخلقى من جميل السيرة ، وحسن السميت ، لا يدل على أن يأس الإنسان من البقاء بعد الموت لا يؤثر على أخلاقه وآدابه بشيء ؛ لأن هؤلاء الملحدين (الكلمة) الذين يضرب بهم معارضونا المثل ، نشأوا في جو عالمي مشبع بالعقائد ، وقد قالوا هم أنفسهم إنهم أمضوا من أعمارهم متمسكين بعقائدهم الوراثة سنيين ، وإنما طرأ عليهم الإلحاد بعد ما نضجت عقولهم له ! فهؤلاء لا يمكن أن يُعتبروا نابتة للمعهد الإلحادى بوجه من الوجوه .

إني والله لأعجب من رجال نالوا حظا من الفلسفة ، وعرفوا طرفا من تطور النفسيات بتطور المبادئ العلمية ، يدفعهم تأييدهم للمذهب المادى إلى القول بأن قنوط الإنسان من الخلود لا يؤثر على نفسيته بشيء ! .

المسألة بديهية ، لا تحتاج إلى التورط في الأصول البيكولوجية إلى حد كبير ، فليفرغ الإنسان قلبه من الشواغل برهة من الوقت وليعرض على نفسه المبدأ المادى ، وهو أن ليس في الوجود شيء أرقى من المادة ، وأن ليس في العالم كله غير الأثير يولد المادة فتندفع للتطور تحت قيادة نوااميس ثابتة مقررة ، فينشأ منها النبات والحيوان والإنسان ، فتدور عليهم الأدوار من النشوء إلى الشبيبة فالهرم ، ثم يدركهم التحلل فيزولوا ويحجى من ورائهم أفواج أخرى ثم أخرى فأخرى إلى ما لا نهاية .

إذا عرض الإنسان على نفسه هذه الآراء ، ظهر له أن الوجود لا يعدو أن يكون مهزلة ، بل قالوا إنه مهزلة ، وقالوا إنه لا يستحق أن يُعاش فيه ، وقالوا إن قتل الإنسان نفسه خير من صبره على حياة سخيفة من هذا الطراز ، فماذا ينتظر البيكولوجى أن تكون عليه نفسيات تنشأ في وسط هذه الآراء الملية المشبعة باليأس والسحر ، إذا مضى عليها مدة كافية ؟

إن هؤلاء الفلاسفة يغرمهم ما يجدونه أمام أعينهم من نفسيات ملحدة عالية ، ويغيب عنهم أن هذه النفسيات تطورت تحت سلطان الديانة والفلسفة ألّوفا من السنين حتى بلغت إلى ما بلغت إليه من حسن السمات ، وجمال الشمائل . فماذا يكون الحال في نظرهم متى صمت الدين ، وانقلبت الفلسفة إلى مادية باحتة ، ومضى على ذلك وقت يكفى لأن تتطور هذه المبادئ وتستقر ، وتكتسب قوة التأثير التي تكون للمبادئ المتفق عليها عادة ؟ هل تبقى في النفوس تلك الصفات التي تولدت وأزهرت تحت سلطان العقائد الدينية والمبادئ الروحية من هدوء القلب ، وصبره على الشدة ، وقناعته بالقليل إذا لم يتسن الكثير ، والعطف على الضعيف وإيثار الغير على النفس ؟

ثم قل لي إلى أى معنى يتحول اسم الشرف والعزة والكرامة والعرض ؟ بل ابحث ماذا تتحل في ذلك العهد من المعاني لكلمات العفة والأمانة والنخوة والمروءة والفضيلة ؟

يقول المعارض : كأنك بقولك هذا تزعم أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا مخدوعا بعقائد من مولدات الخيال ليس لها وجود ، فإذا ما وصل إلى دور الرشد وأدرك أن كل ما كان عليه أيام صباه كان من هذيانات الطفولة ، واتجه ليعيش معيشة الرجولة ، ارتكس إلى الوحشية ، وباء بخسران مبین ؟

نقول : لا ، ليس في المسألة خادع ولا مخدوع ، فإن للإنسان حاجات نفسية كما له حاجات جسمية كلتاهما في درجة واحدة من الضرورة . والذي شاهدناه أن الإنسان الأول كما بحث عن غذائه الجثائي ، بحث عن غذائه النفساني ، ورأيناه كثيرا ما ضحى بنفسه للثاني طواعية بدون إجبار .

هنا يتدخل الفيلسوف المادى ويقول : الإنسان لم يكن مخدوعا في تطلبه للغذاء الجسداني ، ولكنه كان مخدوعا في تطلبه للغذاء الروحاني .

وهذه تفرقة لو فطن لوهيها الفيلسوف المادى لما اعتمد عليها في مثل هذا المعارض ، لأن في طيها دعوى تنافي التثبت الفلسفي المتفق عليه . وهذه الدعوى هي أن ما عليه المذهب المادى من النفي المطلق لكل وجود روحاني هو الحق الذي ليس

وراءه مذهب ؛ والواقع أن بحوثا عظيمة جدت في القرن الأخير لإثبات وجود العالم الروحاني على مقتضى الدستور العلمى من المشاهدة والتجربة ، وقامة المذهب المادى (جمع قيم) يعرفون ذلك ويعترفون بأن عددا كبيرا من أمثالهم صبا إلى المذهب الروحاني وصاروا من أقوى وأبرز أشياعه ، واعترفوا بخطئهم السابق ، ونشروا اعترافهم به في كتب ورسائل لا تحصى . فهل يرى الفيلسوف المادى أن هذا التصديق السريع المستمر في صرح مذهبه يفضى به إلى البقاء والخلود ؟!

* * *

هذا بحث فرعى نشأ من طبيعة الموضوع الذى كنا نعالجه في مفتتح هذه المقالة ، فلنعد إليه ولنقل : إن كل ما أصابنا ويصيبنا من فشل في محاولتنا إصلاح أنفسنا ، لم يكن سببه أننا موتى أو غير عابئين بالنذر ، ولكن سببه أننا جزء من الإنسانية المتمدنة ، فما يصيبها من أعراض وأمراض يصيبنا مثله ، وهى اليوم مصابة بأعراض إلحادية وإباحية سرت إليها من إلحاح التعاليم المادية عليها نحو ثلاثة قرون متوالية ، وقد أناخت هذه التعاليم بكلا كلها لدينا ، واتخذت لها سبلا إلى عقولنا وأذواقنا ، وتطورت عاداتنا وأزيائنا على موجبها ، فتولد منه الشكل الذى نحن عليه اليوم ، فإن كنا نعجز عن علاجه فذلك لأن الفرع لا يتأثر بالعلاج ما دام أصله لا يزال على إصابته .

فهل نضع أيدينا على صدورنا ، ونلبث صامتين لا نحرك ساكنا ، حتى يتأثر مريضنا الكبير من علته ؟

لا ، لا يقول بهذا عاقل ، ولكننا نعمل كما يعمل المريض الكبير نفسه على إزالة العلة الأصلية ، وهى الفلسفة المادية ، لا بالأساليب الجدلية ، والمناوشات الكلامية ، ولكن بالطرق العملية ، والدلائل الحسية . وإذا كنا نحن هنا لا نستطيع أن نجاريه في هذا المجال ، لضعف وسائلنا ، وقلة عنايتنا ، فلا يكن حظنا من العمل أقل من نشر بحوثه الضافية ، وأدلتها الدامغة ، كما فعلنا ولا نزال نفعل في هذه المجلة ، فلا يكاد يخلو عدد منها من نقل بحث تشكيكى في الأصول المادية التى كانت سببا

للفرور العلمى ، أو خير معركة بين الماديين وخصومهم يتجلى من ورائها ضعف حجة الملحدّين ، وَوَهى أصولهم .

بهذا وأشباهه تخدم الأخلاق ، بل يخدم الدين نفسه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويتم إزالة الفلسفة المادية من المجال العلمى نهائيا ، وليس هذا العهد يبعد ^(٥) .

* * *

الحاجات الإنسانية

وأثرها في بناء الجماعات ، وإقامة المدنيات

يخيل لمن لا بصيرة له في العلوم الاجتماعية أن تقليل الحاجات المادية في الأمم يحفظ عليها ما لها ، ويكفل لها استقلالها ، ويجعلها أقل احتياجا إلى سواها ، فترى كل هم مصروفا إلى مكافحة ما لا فائدة له في نظره من الكماليات رجاء أن ينشئ شعبا لا تتعدى مطامعه ما يقيم صلبه ، ويكسو جسمه ، لينصرف بكليته إلى الكمالات الروحانية ، والترقيات المعنوية . وهذا خطأ خطير يقع فيه أكثر النصحاء والمرشدين . وقد تسببوا خلال العصور في إهلاك جماعات دانت لتعاليمهم فلم تلبث أن انحلت روابطها ، وفنيت في أجساد أمم أخرى ، ومنها جماعات لم تصادف مزاحما لها في الحياة بقيت على ما كانت عليه قرونا كثيرة في حالة تحجر ووقوف .

هذا يحفزنا لأن نعقد فصلا في الحاجات الإنسانية وأثرها في بناء الجماعات وإقامة المدنيات نقتبسه من صميم العلم الاقتصادي ، نرجو أن يستهدى به من عهد إليه إرشاد جماعة من الجماعات ، سواء بإلقاء الخطب في المجمع ، أو بالوعظ في المساجد .

الحاجات هي العوامل المولدة لحركات الجماعات :

الحاجة الحيوية التي يشعر بها الإنسان هي العامل الوحيد المولد للحركة المعاشية في العالم ، وهي بهذا الوصف أساس علم الاقتصاد السياسي .

كل كائن حي لأجل أن يصل إلى كماله الشخصي مضطر لأن يستعين بالعالم الخارجى ، وأن يستمد منه عناصر يحيا بها حياته المقدرة له . وهو مضطر لبذل مجهود للحصول على حاجاته ، لأن حصوله عليها يدفع عنه ألما ، والحرمان منها يوقعه في أذى .

لحاجات الإنسان طبائع مختلفة عظيمة الخطر ، ولكل طائفة منها قوانين اقتصادية فنحصر الكلام عليها فيما يلي :

(أولها) الحاجات الإنسانية غير محدودة العدد . وهذا مما يميز الإنسان عن الحيوان ، وهو الباعث على المدنية بأوسع معانى هذه الكلمة .

وقد شوهد أن حاجات النوع الإنسانى تتدرج فى نوعها وقيمتها على نسبة تقدمه فى سلم الحضارة . وحياته من هذه الناحية كحياة الطفل من نوعه . فإنه عند ميلاده لا يتطلب أكثر من الغذاء المناسب له والمهد ، ثم تنشأ فيه بنمو جسده احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والألعاب المروضة ، ولا تكاد تمضى عليها سنة حتى تنشأ له حاجات جديدة . كذلك الحال فى الجماعات البشرية ، فإننا اليوم وقد قطعنا أشواطاً فى المدنية نجد أنفسنا فى حاجة ماسة إلى أشياء تتعلق بالصحة والنظافة والتعلم والتراسل والسياحة لم تكن معروفة لدى أسلافنا . وما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سي شعرون باحتياجهم لأكثر منها ، ولو أتيح لنا أن نقف على خبر كائن أرقى منا فى بعض الكواكب ، لأنسنا عنده احتياجات جمة لأمر لم تخيلها نحن الآن تخيلاً .

إذا علمت ذلك فما حكمك مذ الآن فى الأمم التى تقنع بالقليل من الحاجات ولا تمد مطامعها إلى ما يعد عن الدائرة التى حصرت نفسها فيها ؟ هذه الأمم إذا بقيت مكنتية من الغذاء بشيء من الفاكهة والخضر واللبن ، ومن المأوى بمجدار يقيها لفح الشمس ، فبشرها بالجلء العاجل عن هذه الأرض التى لم تستطع الاستفادة منها مع ما تمتعت من القوى والقدر التى تبلغ بها أرقى مراتب الوجود المادى والمعنوى . هنا يمكن أن يقول قائل : هل ترقى الإنسان فى الاحتياج خير له أو شر عليه ؟

الجواب يحتاج لشيء من التفصيل . ذلك أن هذه الحاجات التى تنشأ للإنسان هى عوامل تحفزه للعمل ، وتضطره للتفكير فى الابتكار والاختراع ، وهذا يدفعه للترقى فى العلم ، فإذا أردنا أن نعمل على تقليل هذه الحاجات كنا عاملين على حذف هذه العوامل ، فقل الجهود العقلية ، وتبطؤ حركة الحياة الاجتماعية ، ويهبط مستوى الثروة العامة .

ومما يجب أن يعلم فى هذا الموطن أيضاً أن الحاجات الاقتصادية المحضه ليست مجردة من نتائج أدبية عالية ، وذلك أن كل حاجة منها هى بمثابة رابطة جديدة تزيد

انضمام الناس بعضهم إلى بعض ، لأن نيلها لا يتأتى إلا باشتراك مجموعهم في إيجادها . ومن هنا ينمو في البشرية الشعور بالتساعد والترافد . فإن الرجل القليل الحاجات لا يحتاج لغيره ، ولكن يكتفى بنفسه ، وهو ما لا يجب أن يكون بين النوع الإنسانى الذى علق ترقى أفرادة على التعاون الاجتماعى .

(ثانيا) الحاجات الإنسانية محدودة في مقاديرها . هذا من الأصول الخطيرة لعلم الاقتصاد السياسى التى تبنى عليها النظرية الجديدة على قيمة الأشياء . وموداها أن لكل حاجة يشعر بها الإنسان مقدارا خاصا لا تتجاوزه الرغبة . مثال ذلك أن الإنسان يحتاج للمواد الغذائية ، ولكن احتياجه إليها يقف منها عند حد لا تتجاوزه ، خلافا لحاجاته الصناعية أى الاجتماعية ، فلا تكاد تجد لها حدا تقف عنده ، فإنك لا تستطيع أن تتخيل مقدار المال الذى يشبع نهمة الرجل المتمدن .

(ثالثها) أن الحاجات الإنسانية متعارضة ، ومعنى ذلك أن الحاجة من الحاجات لا تحصل إلا بملاشاة حاجة أخرى أو امتصاصها . وهذا قانون اقتصادى خطير يبنى عليه إمكان إصلاح الأمة بواسطته . وذلك بإنشاء احتياجات عالية للأمة لتبيد احتياجاتها السافلة . وقد شوهد أنه يمكن الاستعاضة عن عادة مادية بعادة عقلية ، فيمكن إحلال التردد على النوادى الأدبية محل التردد على الملاهى العمومية . والمدار فى الاستفادة من هذه الأصول على الحكومات الرشيدة ، والمعلمين الهداة .

(رابعها) الحاجات الإنسانية متآلفة . هذا الناموس يظهر بادىء بدء أنه مناف للتقدم ، وليس هو كذلك . فالناس من ناحية العمل أليسوا متزاحمين ومتآلفين فى وقت معا ؟ فالتخالف يوجد بين الحاجات التى تطلب لغرض واحد ، لا بين الحاجات التى تطلب لأغراض شتى . فحاجة الإنسان للتغذى من نوع من الأغذية تتعاضد وحاجته لنوع آخر منها ، ولكنها تأتلف مع حاجته للخوان والكرسى والفوطة والسكين إلخ .

(خامسها) الحاجات الإنسانية تميل لأن تصبح عادات راسخة ، أو كما يقال طبيعة ثانية ، وهذا له قيمة كبيرة بالنسبة لأجورالعملة . ذلك أن الإنسان متى ارتفع إلى مستوى من العادات صعب عليه أن ينحدر عنه فجأة . فلقد مضى زمن كان

العامل الفقير لا يلبس الأبيض ، ولا يضع في رجله حذاءين ، ولا يتعاطى القهوة ولا التبغ ، ولا يأكل اللحم ولا خبز القمح ، ولكنه أصبح أسير هذه الحاجات الآن بحيث لو صار غير قادر على توفيتها فجأة هلك لا محالة .

ولو أضفنا إلى هذا أن العادة متى مر عليها في الأمة أجيال متعاقبة ، رسخت في الأعقاب بالوراثة ، وشعرت الحواس بضرورتها شعورا كبيرا ، من هنا تعلم خطر تلك السلطة الاستبدادية التي تكتسبها الحاجة ، وإن ظهرت في أول أمرها هينة لا تذكر .

(سادسها) أن بين الحاجات التي تطورت إلى عادة راسخة في الأمة ، وبين العادات التي تنشأ حديثا منازعة قوية وحربا طاحنة ، نتيجتها تلاشي عادات قديمة وقيام عادات جديدة على أنقاضها . وهذه العادات الجديدة قد تكون أرفع من القديمة أو أحط منها .

هذا الناموس الطبيعي يمكن الاستفادة منه في ترقية الأمم بإنشاء حاجات جديدة لها ذات أغراض شريفة ، وتقويتها بحيث تصبح فيها عادة أو طبيعة ثانية ، ومتى تم ذلك في عدة خصال عالية القيمة ، حفزت الأمة إلى باحات الشرف والكرامة بدوافع ذاتية لا أثر للتصنع فيها ، وكان حظ الجماعة من ورائها عظيما للغاية .

من هنا يرى القراء العلاقة الوثيقة الموجودة بين الحاجات الاقتصادية وبين الشؤون الاجتماعية ، فالرجل الذي يتدب لترقية نفسية أمته ، لا يجوز له أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا ألم بجميع هذه الأصول المقررة لئلا تكون تعاليمه ضارة بدل أن تكون نافعة . وكثير من المصلحين يفشلون لإغفالهم هذه الحقائق العلمية .

الذي نلاحظه على أكثر الذين ينتدبون لإصلاح الجماعات ، سعيهم المتواصل لتقليل حاجات أفرادها ، وتبسيط معيشتهم ، توهمهم أن ذلك يحفظ عليهم صحتهم وأموالهم ، ويحصر همهم في وجهة واحدة وهي الترقى ماديا وأديا . فلو قدرنا لهؤلاء المصلحين نجاحا ، لرأينا أنه قد ابتنى عليه فساد اجتماعي كبير ، تظهر آثاره في تدهور الصناعات ، وانحطاط الفنون ، والنتيجة الطبيعية لهذا ، قلة الأعمال وانتشار البطالة واشتداد الفاقة على الطبقة الأخيرة من الأمة ، ومتى جاءت هذه انصرفت إلى التلصص والسلب ، وارتكاب الجنايات ، واللجأ إلى دعاة المذاهب الانقلاية .

من هنا يدرك الناس حكمة الإسلام في تحليله متع الحياة ما دامت في حدود الاعتدال ، وبعبارة عن المآثم والعدوان . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) . وفي الحديث « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد آنسنا اعتراضا من بعض الجماعات على هذه الرخصة ، زاعمة أن مهمة الدين الحث على الزهادة والاخشيان ، وتكرية الناس في متع الحياة ولذاتها ، فكيف يبيحها الإسلام إلى حد أن يُنزل فيها قرآنا . وإني لأظن أن القراء قد فقهوا الآن ، بعد ذكرنا لمكان الحاجات من شعور الاجتماع ، أن هذا التنويه وراءه من الحكمة ما لا يستطيع أن ينكره إلا متعنت . فلو كان الإسلام سام أهله الاخشيان في المعيشة ، والقناعة من المصنوعات بما يسد الحاجة منها ، وزهدهم في الدنيا حتى كرهوا كل متعها ولذاتها ، لما قامت لهم جماعة ، ولا انتظمت لهم حياة ، ولا ازدهر لهم علم وتلاؤلات لهم مدنية . ولكنهم كانوا يَجْلون عن الأرض بعد جيل أو جيلين من قيامهم ، غير تاركين وراءهم إلا ما تتركه كل جماعة لم تتفنع بوجودها ، ولم تستفد من مواهبها .

من أجل ما نلفت إليه نظر القارئ - ونحن بصدد هذه المعجزة العلمية للكتاب - أن الله سبحانه وتعالى قد علم ما سيقال في ترخيصه في نعم الحياة وزينتها من الاعتراضات التي مشارها قصر النظر ، فذيل الآية بما يشعر بأن هذا الأمر سوف يدركه الذين يعلمون الحقائق ، ويذيعونها بين الناس ، مضيفين به إلى معجزات القرآن معجزة جديدة ، فقال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) .

(١) سورة الأعراف : ٣٢ .

(٢) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٥٧ هـ ، (صفحة ٣٥١)

obeikandi.com

نظرات في المذاهب المتطرفة الشيوعية وسوء آثارها في الهيئات الاجتماعية

- ١ -

بعد وصول الإنسانية من المستوى العقلي إلى درجة تسمح لها بالتفكير في وسائل تحسين حالتها الاجتماعية ، غنى أفراد من أهل البصر منها بتخيل نظم ظنوا أن الجماعات لو قامت عليها ، وأخذت بأصولها ، تتأدى إلى حالة أرفع مما هي عليها في حياتها الراهنة .

ولكن حياة الشعوب الاجتماعية تقوم على سنة طبيعية ثابتة من التطور التدريجي ، فلا يستطيع نقلها من حال إلى حال بنظام يُتكرر أو برنامج يُتخيل . ومن هذا القبيل كانت جمهورية أفلاطون ، وسياسة أرسطو ، والمدينة الفاضلة للفارابي ، وكل ما حدث في القرون المتأخرة من المذاهب الاشتراكية والشيوعية والفوضوية . فمن أراد أن يعرف ما يفعله إطلاق العنان للخيال في هذا المجال ، فلينظر في الأصول التي تقوم عليها هذه المذاهب . فقد أتى كثير منها بأمر يأنف الضمير البشري أن يعيرها التفاتا ، كراى بعض الفرق الاشتراكية إبادة جميع الضعفاء وأصحاب العاهات حتى لا يبقى إلا الأقوياء على مكابدة الأعمال ، كى لا يكون المرضى والضعفاء عالة على المجتمع ؛ وكُنْصَح بعضها أن يُحذف الزواج ويجعل جميع النساء لجميع الرجال ، وما يولد من هذه المخالطات تستولى عليه الحكومة ، وتربيته على نفقتها ، ثم تقذف به إلى المجتمع ليؤلف جيلا جديدا ، وهلم جرا ؛ وكختم بعضها وجوب حذف الحكومة والدواوين وترك الناس لأنفسهم ينظمون شئونهم عرفيا ، زاعمين أن النوايس الطبيعية في تدبيرها العلاقات بين الناس ، خير من النظم والقوانين التي تضعها الحكومات . قيل كل هذا وكتب ؛ ولكن الأم جرت على سجيته ، مكتتفة بالعوامل المحيطة بها ، ولم ترفع بهذه الخيالات رأسها !

الأمر الذى تقوم عليه فتنة غلاة الاشتراكيين هو دعواهم أن الفاقة المنتشرة بين الدماء منشؤها سوء توزيع الثروة الاجتماعية ، وأنهم قد هُذوا تحت ضوء العلوم الاقتصادية إلى نظم لو أثبتت لعاش الناس جميعا فى بحبوحة الرغد والرفاهية . وأشد هذه المذاهب تمحدا وتزييدا الشيوعية ، وقد وقعت فى حبالها جماعات فازدادت تغلفا فى العُلم والجاهلية .

ونحن إن اختصصناها بالكلام فى هذا البحث فليس ذلك باعتبار أنها شكل حكومى لأمة بعينها ، ولكن باعتبار أنها مذهب أصبحت له دعوة ودعاة يروّجونها ما وجدوا آذانا تصغى لإلهم .

الأصول التى تقوم عليها الشيوعية :

المذهب الشيوعى يقوم على أصول ثلاثة رئيسية :

(أولها) محو الملكية الفردية ، والحقوق الوراثية ، وجعل أرض الأمة وكل ما عليها ملكا لجميع أفرادها على السواء .

(ثانيا) حذف رعوس الأموال الفردية ، وجعل الحكومة قيّمة عليها .

(ثالثها) استئصال شأفة الدين من المجتمع ، باعتبار أنه ألد أعداء الشيوعية ، تسلطه العظيم على عقول العامة ، وبثه فيها مبادئ تناقض لإيجاد الفردوس الأرضى فى زعمهم .

ونحن نناقش هذا المذهب الحساب فى كل هذه الأصول ، لنثبت للناس أنه لا يخالف العلم فحسب ، ولكنه يخالف الأوضاع الطبيعية أيضا ، ويحاول هدم جميع البواعث التى تعمل على حفظ الإنسانية وترقيتها ، سواء أكانت مادية أم أدبية .

أما أول هذه الأصول وهو محو الملكية الفردية ، فمناقض للوضع الطبيعى ، فإن أول ما كان عليه الناس أيام هجيتهم الأولى كان عدم الملكية ، لانحصار العناية فى أمر واحد هو الحصول على الغذاء ، فكان الأفراد يهيمنون على وجوههم فى القفار ليصطادوا بعض الحيوانات ، أو يجوسون خلال الغابات لاستخراج بعض جذور الأشجار . فلما هُذوا إلى استغلال الأرض ، كان كل منهم يزرع ما حول بيته ، والأرض واسعة والناس قليلون .

فلما ارتقى الاجتماع ، وازدادت معرفة الإنسان بالزراعة ، وتميزت الأسر ، وبدأت تتحدد الحقوق ، وُجدت الملكية ؛ فالملكية ترقى عن حالة الشيوعية التي سبقتها ، وكما وُجدت الملكية وُجد الزواج ، وُجدت الحقوق والواجبات ، وُجدت وشائج الاجتماع ومقوماته وحوافظه ، فتركب بعد سذاجته الأولى ، ومن تركيبه نشأت قوة تماسكه ، ومتانة ترابطه ، وشدة مناعته ، وابتنى على هذا التركيب كل ما للإنسانية من حظ في البقاء والاستمرار والترقى إلى أبعد الغايات . ومجرد النظر إلى حالة الجماعات يهجم بك على الفرق بين ما تنتجه حالة التركيب الاجتماعى ، وما تنتجه حالة البساطة الفطرية . وإنك لتعجب أن ترى جماعات ساذجة التركيب لا تزال باقية على ما كانت عليه منذ ألوف السنين ، على حين أن التي ساعدتها الأحوال المحيطة بها على التركيب قد بلغت شأواً بعيداً من المدنية . فالملكية ترقى عن الحالة الشيوعية ، فإن عادت أمة إليها زایلها جميع ما ابتنى عليها من وشائج الاجتماع وروابطه ومناعاته ، فأصبح رهن ثورة تهب فيه تحلل عناصره ، أو شدة تصادفه تفكك أوصاله . لذلك يضطر القائمون عليه أن يمسكوه في دائرة الاستقرار الاجتماعى بالقهر والإرهاب ، ويكون هو في أثناء ذلك سريع التقلب يتربص أن يجد فرصة للتفكك لينتزها .

وقادة مثل هذه الجماعات الشيوعية إنما يتوخون بمحو الملكية والوراثة ، أن يمنعوا أن يتناول بعض الأفراد من الثروة العامة فوق ما يكفهم فيدخروه ويحجبوا غيرهم عن الانتفاع به . وما دروا أنهم بهذه الوسيلة التي لن يكون لها أثر يذكر في تحسين الحالة الاقتصادية للمجموع ، يقتلون في نفوس الآحاد روح التنافس المشروع ، فيصبح الكافة سواسية في الفاقة والعُدم ، ويحرم المجتمع من المشروعات العظيمة التي يتوق إليها ذوو الكفايات العالية طلباً للكسب .

ولا يعترض علينا بأن وجود الحكومة قيِّمة على الثروة العامة ، يكفل حصول تلك المشروعات بواسطة لجان تؤلف لذلك ، فإننا نرد هذا الاعتراض بقولنا : إن في قيام الحكومة مقام الأفراد والشركات خنقا لعاطفة الإقدام في نفوس الآحاد ، وإحالة للمجتمع إلى حالة القِصَر الذى ارتقى عنه أمثاله من الجماعات ، فيصبحون في حاجة ماسة إلى حكم الإرهاب ، وهذا الحكم يقتضى بث العيون والأرصاد ،

فيضحي بعض الأمة رقباء مأجورين على البعض الآخر ، فإذا مر على الأمة في هذه الحالة ربح من الزمن أصبح تمالكها الاجتماعي صناعيا بعد أن كان طبيعيا ، وصارت عرضة للتفكك عقب أية هزيمة حرية أو كارثة اجتماعية .

وهم الشيوعية في تحسين حالة الفقراء بمصادرة أموال الأغنياء :

يستهو الشيوعيون الفقراء بأنهم سيجعلونهم في رغد من العيش بحذف طبقة الأغنياء ، ومصادرة أموالهم ؛ وهو وهم كبير لا يطوف إلا برعوس الذين لاحظ لهم من العلم الاقتصادي .

كتب العلامة الاجتماعي الروسي (نوفيكو) في كتاب له يعالج فيه مسألة الفقر :

« لقد انتشر في العالم رأى كاد يعم الهيئة الاجتماعية ، وهو أن الفقر ما أنشأ أظفاره في الدماء إلا بسبب سوء توزيع الثروة على الناس . ويقول أشياخ هذا المذهب : إنه متى أخذت الثروة من أيدي المحتكرين لها ، وقسمت على الناس تقسيما عادلا ، ذهب الفقر ، وحل الكفاف ، وأصبح النوع الإنساني في أرغد عيش أبد الآبدين .

« فما أجدرنا بأن يهنيء بعضنا بعضا بهذا الحل لو كان حقيقيا ...! »

« ولكن الحال وا أسفا ليست على ما يصفون ، فإن الدماء ليسوا بفقراء لأن بضعة رجال من أصحاب الملايين قد احتكروا الثروة ، ولكنهم فقراء لأن مقدار المواد الغذائية التي تنتجها الأرض لا تكفيهم . ولما كانت هذه الأزمة الغذائية ناشئة من البيئة ، فيمكن أن يقال إن الفقر ضارب بجذوره في العالم ، لأن النوع البشري لم يعد الأرض للإنتاج إعدادا يتفق ومصلحته الحقيقية .

« الفقر لا يُدفع بواسطة تقسيم الثروة بين الناس لسببين بسيطين :

« أولهما أن المال الذي يراد تقسيمه غير كاف لجميع حاجات الناس ، وقد تقرر ذلك بواسطة الإحصاءات . ذلك أنه لو صودرت الأرباح الفردية التي تزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك وقسمت كلها على الناس الذين يقل دخلهم عن هذا القدر ،

وجد أنه لا يخص كل فرد أكثر من ١٢ في المائة من دخله الحالى . وبما أن الناس لا يصلون إلى الرغد المرجو إلا إذا كان لكل منهم عشرة أضعاف دخله الحالى ، أدركنا أن مسألة الفقر لا تندفع بتقسيم ثروة الأغنياء على الفقراء فإن العامل الذى يكسب الآن فرنكين يوميا ويشكو من الشكوى من الفاقة ، لن تتغير حاله إذا أعطى الاثنى عشر في المائة التى تخصه من مصادرة أموال الأغنياء ، إذ أن أجره لن يزيد أكثر من ربع فرنك يوميا ، فماذا عسى أن تحسن هذه العلوة الضئيلة من حاله ؟

« أما السبب البسيط الثانى فهو ناشئ من طبيعة الثروة ذاتها . ذلك أنه إذا كان دخل المستر بيرمور مورجان الأمريكى ٨٣ مليوناً من الفرنكات في السنة ، فإن صودر هذا الدخل وقسم على إخوانه الأمريكيين ، نال الواحد منهم أقل من فرنك ، وماذا عسى أن يعمل هذا القدر الضئيل من تحمين حال الفقير الأمريكى ؟

« ولكن المستر بيرمون مورجان لن يكتب في السنة التالية ٨٣ مليوناً أخرى لأن الأمة صادرت كسبه الشخصى ، فيكتفى بكسب بضعة آلاف لحاجته الشخصية ، وما يصدق على المستر بيرمون يصدق على جميع الأغنياء ، فإن أفادت مصادرة أموالهم مرة واحدة فلن تتكرر هذه الإفادة ، فمن يسد خلة الفقراء وحاجاتهم تجدد في كل حين ؟ » .

ثم عمد الأستاذ الروسى إلى بيان العلاج العلمى فقال :

« ثبت لنا من الفصل السابق أن حالة النوع البشرى سيئة جدا ، وأنا فقراء لأن متحصلات الأرض السنوية لا تنتج المقدار الكافى من الغذاء والملبس ، فهل هذا لأن الكرة الأرضية تعجز عن موافاتنا بما هو ضرورى لنا ؟ إن كان الجواب إيجابيا وجب علينا أن نرضى بما قسم لنا ، وأن نعتبر الفقر كما نعتبر الموت أمرا لا محيص منه . ولكن من حسن حظ العاملين أن هذا الافتراض خطأ ، فإن في قدرة الأرض أن تعطينا ليس ما يوازى ١٠٠٠٠ فرنك سنويا لكل منا فحسب ، ولكن في قدرتها أن تعطينا عشرة أضعافه ، فإن ينابيع الثروة فيها - كما قال الجغرافى المشهور (اليزيه ركلوز) - لا حد لها على الإطلاق » . انتهى .

نقول : إذا كان هذا هو الرأى العلمى فلا يكون لحذف طبقة الأغنياء من نتيجة سوى قتل عواطف التنافس فى الصدور ، وشل ملكات الإقدام فى نفوس أهل النشاط والقوة الفياضة ، وحرمان مجموع الأمة من جهودهم العظيمة فى إقامة المشروعات النافعة ، والحكم على الكافة بحالة من العُدم تصل بالأمة إلى مكان سحيق ، وتجعلها تتربص المخلص منه عند كل بادرة من فتنة فتأتى بشر مستطير .

أما وقد رأيت أن الشيوعية لا تستند إلى أساس علمى ، من الناحية الاقتصادية ، وأنها تفكك أواخى النظام الاجتماعى ، وتحلل من ربطه ، وتذهب بحوافظه ، فإننا نرجو أن نثبت لك خطأها فى مناوأة الدين واعتباره سببا فى إثارة العداوات بين الأمم ^(٥) .

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الحادى عشر ، سنة ١٣٥٩ هـ . (صفحة ٣٩) .

نظرنا في المقال السابق في الناحية الاقتصادية من الشيوعية ، وهى الناحية التى يحاولون أن يفتنوا الفقراء من قبلها ؛ وقد رأيت أن سيادة هذا النظام الاجتماعى يزيدهم فقرا على فقرهم ، وإذا تمادى بهم حُلّ وحدتهم ، وأتى على جميع حوافظهم الاجتماعية . واليوم ننظر فى هذا المذهب من ناحية مناهضته للدين ، وهى أخص ما تعنى به هذه الجملة :

عرّف الدينَ موجد الشيوعية (كارل ماركس) الاسرائيلى الألماني فى بعض كتبه فقال : « الدين عبارة عن تنهّدات الجماعات المظلومة » . يريد بذلك أن يقول : لو ارتفع الظلم عن هذه الجماعات لما وُجد الدين .

ويقول الذين يدعون إلى هذا المذهب : « فى كل مجتمع قائم على أساس الطبقات لابد للدين من أن يولد تحت تأثير النير الاقتصادى ، ويكون إحدى قوى الضمير الاجتماعى . أما عندنا فإن الشروط الاجتماعية التى كانت تنشأ عنها الأفكار والعقائد الدينية قد اضمحلت وأصبح الدين كائناً ميتاً لا تأثير له فى الاقتصاد وفى النظام الاجتماعى » .

ونحن نبادر إلى دحض هذه الآراء قبل الانتقال إلى غيرها حتى لا يلتبس الأمر على القارئ :

أما قول مؤسس الشيوعية : إن الدين هو تنهّدات الجماعات المظلومة ، فهى عبارة شعرية ليس فيها عبقة من علمى النفس والاجتماع ، فقد ثبت أنه يستوى فى عاطفة التدين المظلومون وغير المظلومين ، بل ثبت أن غير المظلومين من كبراء الأمم وأثريائها وسراتها ، أكثر تدينا من رعاها وغوغائها ؛ وقد تقرر أن منهم من تنازلوا عن عروشهم وخرجوا عن أموالهم تورعاً وتزهداً ؛ وفى الأرض اليوم جماعات غير مظلومة تعيش فى ظلال الديمقراطية الوارفة الظلال ، أشد تمسكاً بدينها من الأمم التى تعتبر فى عرف الشيوعيين مظلومة .

وأما قول أشياع الشيوعية من أن كل مجتمع قائم على أساس الطبقات يتولد فيه الدين تحت تأثير النير الاقتصادي ، فغير صحيح ؛ فقد ثبت علميا أن الدين تُولد في الجماعات الأولية الساذجة ، قبل أن يُعرف نظام الطبقات فيها ، بل قبل أن يكون لها جماعة بالمعنى المعروف اليوم . أعنى بهذا أيام كان كل إنسان يعمل لنفسه ولا يسأل عن غيره ، ويجهل النظم الاجتماعية كل الجهل . فإذا كان الشيوعيون يلاشون كل النظم المعروفة فلا يؤمنون من وراء ذلك أن يقطعوا سلطان الدين ، لأنه لا يستمد هذا السلطان من جوع الجماعات ، ولا من وقوعهم تحت برائن القادة الظالمين ، ولكنه يستمد من أشرف عواطف النفس ، وأكرم غرائز العقل . وقد عرف بالمشاهدة أن الإنسان إذا كانت قواه مستوعبة في طلب القوت ، ومحاولاته وقفا على فتح الحيل للوصول إليه ، ضعف سلطان الدين عليه ، ولم يجد وقتا للنظر في نفسه ومصيرها ، وحياته وينبوعها ، ولا للفكر في آدابه ونظامها ، وسيرته وقوامها ، وكثيرا ما أداه شظف العيش إلى الكفر . هذه حقائق يمكن الاهتداء إليها بالمشاهدة ، فإنك حيث تصادف الفاقة والعُدم تجد خمود الشعور ، وهمود العواطف ؛ وحيث تؤانس اليسار والخفض ، تلفى التوق للسمو الأدبي ، والحنين لاختراق حجب الغيب لتنور الأسرار العلوية . وهل الدين في حقيقته غير الانتهاء إلى المثل العليا في الأدب النفسى والمعرفة ؟ وأين هما من الجائع المكدود ، والمعدم اللاصق بالتراب ؟

فإن تخيلت كائنا ميتا تسميه الدين ، فهو عند الجماعات المنكودة الحظ ، الواقعة تحت كلا كل الظلم ، لا عند الجماعات التى نالت حظها من الرغد ، وفرغت من هموم الكد ، ووجدت عقولها وقتا للنظر والتأمل ، واستعدت نفوسها للترقى والتكامل . ويقول أنصار الشيوعية :

« إن بقاء المعتقدات الدينية يقوَّى بواسطة السلطة الإلهية والدينية جميع النزعات الرجعية في أفكار الناس ، ويستبقى العادات القديمة ، ويعزز الميول العدوانية نحو النساء ، ويخلق شريعة العبودية والتعصب ، ويوطد أصول الرأسمالية » .

نقول : من حسن الحظ أن الذين يقومون بهذه الفلسفة هم في أوربا لا في مجاهل أفريقيا ، ولا في سهوب الأقيانوسية ؛ وليس في العالم مظهر أروع ، ولا مشهد

أكمل ، من الأمثال التي تضربها شعوب أوروبا في التخلص من النزعات الرجعية ، والوراثات التقليدية ؛ وفي تحرير النساء ومنحهن حقوقهن الطبيعية ؛ وفي تحطيم أغلال العبودية ، وفي تلطيف سلطان العصبية ، وتعديل الأصول الرأسمالية ، لتوافق المصالح الاقتصادية ، ولا تتحيف حقوق الضعفاء في الهيئة الاجتماعية .

لا أظن أن عهدا من عهود البشرية تجلت فيه روح الإنشاء والتجديد في كل مجال من مجالات النشاط العلمي والاقتصادي والاجتماعي ، مثل تجليها في الغرب في القرنين الأخيرين :

فقد تطورت العلاقات بين الحكومات والشعوب ، وبلغت أرقى ما يمكن أن تبلغه من الثقة بين حاكم ومحكوم في هذه الحياة الأرضية .

وتهذبت الصلات بين أصحاب الأموال والعمال ، حتى اعتبر العمل ورأس المال عاملين متساويين في الحقوق ، فلم يعد العامل مستعبدا لصاحب المصنع ، ولا عالة عليه ، ولكن شريكا له في الإنتاج . لذلك اعترفت له الحكومات بالنقابات التي تضمن حقوقه الطبيعية ، وتضمن على مصالحه الاقتصادية ، وسمحت له بالدفاع عن تلك الحقوق والمصالح بكل ما تسمح به لسواه في حدود النظام .

واندفعت تلك الأمم في ميدان الترقيات المادية والروحية طليقة حرة ، زارية بالرجعية والرجعيين ، والتقليد والمقلدين ، حتى كادت تقطع الصلة بين القديم والحديث .

وبالغت في تحرير النساء حتى اهتمت بمحباتهن ، وبث روح التمرد في قلوبهن ؛ وليس بعد هذه الدرجة من مزيد إلا إذا أريد قلب الأوضاع الطبيعية بجعل الرجال تحت قيادة النساء ، وليس هذا من الإصلاح في شيء .

فلا أدري بعد هذا كله معنى لتبجح الشيوعية بمبادئها الجديدة ، ولم تبلغ الجماعات التي أخذت بها بعض ما بلغته الأمم التي نذكرها ، وكان المعقول أن تعطى العالم مثالا في تفوقها ، وفي سرعة تطورها ؛ فأى سبق تدعيه عليها ، وأى تخلف عنها تعبرها به ، وهي لا تحفظ وجودها في عقر ديارها إلا بسيف القهر ، تقطع به وتبين كل من تحدته نفسه برفع نيرها عن عاتقه ؛ وتلك الأمم تعيش في مجبوحة

الحرية ، لكل منها الحق أن تنتقد حكومتها ، وأن تسقطها وتقيم سواها متى تعدت إرادتها ، لا تعرف حكم الإرهاب ولا يعرفها ، سلطاتها الإجماعى فوق سلطان آحادها ، رضيت بهذا الحظ الموفور من كرامتها ، واتجهت لبلوغ غايات المثل العليا بالعلم والعمل على سجيته .

لعل الذى أطال من لسان الشيوعية ضد الدين إلى هذا الحد ، أن عامة الأمم وجهلتها لا يزالون يدينون بالخرافات العتيقة ، ويحافظون على ضلالات الأولين لا يريدون عنها حولا ، ولكن أصحاب البصر من تلك الأمم يرون ذلك ويدأبون على إصلاحه بوسائل تلائم الطبيعة البشرية ، من طريق ترقية مداركهم ، ورفع مستوى عقليتهم ، كل ذلك مع عدم العدوان على العاطفة الدينية التى اعترفت الفلسفة أنها من لوازم الفطرة البشرية ، وأنها لا رتكازها على أرفع مميزات النفس لا يمكن ملاشتها إلا بإسقاط الإنسان إلى حضيض الحيوانية ، وإلهائه عنها بالمطالب الجسدانية ، وهو جهد محكوم عليه بالضياع ، لأن الفطرة الإنسانية تعود فتتنبه للنظر فى ذاتها وعلاقاتها بالوجود ، فتستيقظ العاطفة الدينية من سباتها ، وتبحث عن مقوماتها من العقائد والتقاليد . فإذا أصر الشيوعيون على مقاومة هذه الميزة الفطرية فى النفس البشرية بالقوة ، أذاهم ذلك إلى ارتكاب ضروب من العنف تترفع أية حكومة متمدنة عنه .

ولكن لم هذا العداء كله للدين ؟

لو كان كل أمة ذات دين ترزح تحت كلا كله ، ولا تتعش من كبوتها حتى تتخلص منه ، كان للشيوعيين عذر فى العمل على ملاشاته فى جماعاتهم ، ولكن المشاهد أن الدين لم يمنع ارتقاء الأمم إلى أرفع درجات المدنية فى خلال العهود الإنسانية كلها ، بل شوهد أن منها من لم ينهض بعد جمود طال عليها العهد فيه إلا على يد دين ، كالأمة العربية ، فقد نفث فيها الإسلام روحا عالية ، فأُسست أعظم دولة عرفها تاريخ البشر ، وبلغت من المدنية إلى أوج لا يزال مضرب الأمثال إلى اليوم ؛ وهذه الأمم المعاصرة لم تمنعها أديانها ، ولا أوهام عامتها ، من بلوغ الغايات البعيدة من العلم والفلسفة والمدنية . ذلك لأن هذه الأمم الحرة الرشيدة بدل أن تقيد حرية الضمائر ، وتنشئ لحكومتها هما كبيرا من هذه الناحية ، يدفعها إلى ضروب من التعسف ، قطعت ما بين الحكومة والكنيسة من الاتصال ، فاقصر سلطان العقائد

على الحيز الشخصى ، واتسع للمجتمع بجملة مجال التطور والارتقاء غير مقيد بقيد ، فلم يقف فى توثباته عند حد .

فالمذهب الشيوعى لم يكفه أن تتولى حكومته توزيع الأرزاق على الأفراد ، وتقييد حريتهم فى الاستثمار والادخار ، فخول نفسه فوق ذلك الحق فى تقييد عقولهم ، وحصرها فى دائرة يحدها لهم . وهذه سيطرة لم ترضها الإنسانية من قادة الدين أنفسهم ، فبذلت فى سبيل التخلص منها أرواح أبنائها ، مع أنهم كانوا يريدون أن يسكوها فى دائرة العقائد الدينية التى تقدسها ولا ترى لها حياة بدونها ، فهل تقبلها من قادة الشيوعية وهم يرمون إلى ملاشاتها ، والتعفية على آثارها ؟

إن الطبيعة البشرية قد أثبتت السيطرة كما رأيت فيما تهوى ، فهل يطوف برأس متخيل أنها تقبلها فيما لا تهوى ؟

فهذا التورط الشنيع الذى تتكلفه الشيوعية ، وتحتفظ به فى سبيل عزم من دماء البشر ، فى سبيل اجتثاث جرثومة الدين من قلوبهم ، لا يعقل أن يدوم ولو حققت لهم حلم الفردوس الأرضى ، فليس الإنسان بالكائن الذى إذا امتلأ بطنه بالطعام اكتفى بذلك ولم يعد يسأل عن علاقته بالوجود ، ولا عن المثل الأعلى للحياة ، ولا عن مصيره بعد الموت ، ولا عن غذائه الروحانى الذى يحس بحاجة الماسة إليه . فالشيوعية تريد الإنسان على أن يكون حيوانا لا تبعد همته عن محيط كَرِشِه ، وقد خلق إنسانا لا تقطعه الدنيا عن البحث فى حقيقة نفسه ، وعلة وجوده ، وعلاقته بمبدعه . وهل الدين غير هذه الميول الفطرية فيه ؟ فإذا كان من المحال تغيير الفطرة ، فمن المحال كذلك هدم الدين ^(٥) .

* * *